دُمُوعُ النُّجُومِ:

فِي مَلَكُوتِ التَّقْبِ الأَسْوَدِ وَاللَّا وُجُود

✦ مُناجاةٌ تَحْتَ قُبَّةِ اللَّيْلِ ✦

تأليف/ تامر شاهين

فَاتِحَةُ الكِتَاب

«مُنَاجَاةٌ تَحْتَ قُبَّةِ اللَّيْل»

إِذَا أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَهَدَأَتْ فِي صُدُورِ البَائِسِينَ زَفَرَاتُ الشَّقَاءِ، وَانْطَفَأَتْ مَصَابِيحُ المَدِينَةِ الَّتِي يُخَادِعُ بِهَا الآدَمِيُّونَ وَحْشَتَهُم؛ فَاخْرُجْ مَعِي يَا صَاحِبِي إِلَى فَضَاءِ الخَلَاءِ، بَعِيداً عَنْ سُكَّانِ الطِّينِ وَصَخَبِ الحَيَاة.

قِفْ هُنَاكَ مَلِيّاً، وَأَلْقِ عَنْ كَاهِلِكَ هُمُومَ يَوْمِكَ وَأَوْزَارَ أَمْسِكَ، وَارْفَعْ بَصَرَكَ إِلَى تِلْكَ القُبَّةِ الزَّرْقَاءِ المُنْتَصِبَةِ بِلَا عِمَاد. انْظُرْ إِلَى هَذَا الفُسْطَاطِ اللَّيْلِيِّ البَهِيج، وَتَأَمَّلْ تِلْكَ المَصَابِيحَ المَبْثُوثَةَ فِي أَرْجَائِهِ كَأَنَّهَا قَطَرَاتُ نَدًى عَلَى رِدَاءِ رَاهِبٍ، أَوْ دُمُوعٌ تَتَرَقْرَقُ فِي مَآقِي الوُجُود!

أَلَا يَأْخُذُكَ العَجَبُ يَا صَاحِبِي كُلَّمَا أَمْعَنْتَ النَّظَرَ فِي هَذَا السُّكُونِ العَظِيم؟

أَيُّ شَيْءٍ أَنْتَ—أَيُّهَا الإِنْسَانُ المَغْرُورُ—فِي هَذَا الخِضَمِّ الزَّاخِرِ الَّذِي لَا شَاطِئَ لَهُ وَلَا قَرَار؟ مَا هَذِهِ الأَرْضُ الَّتِي تَمْلَؤُهَا ضَجِيجاً وَخُيَلَاء، وَتَسْفِكُ فِي سَبِيلِ شِبْرٍ مِنْهَا الدِّمَاء، وَتَبْنِي فَوْقَهَا القُصُورَ وَتَحْسَبُ أَنَّكَ خَالِدٌ فِيهَا؟ مَا هِيَ إِلَّا حَبَّةُ رَمْلٍ ضَائِعَةٌ فِي صَحْرَاءِ اللَّانِهَايَة، تَسْبَحُ فِي خَلَاءِ المَلَكُوتِ كَمَا تَسْبَحُ الهَبَاءَةُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ، لَوْ فَنِيَتْ بِمَنْ عَلَيْهَا لَمَا بَكَتْهَا سَمَاءٌ، وَلَا أَظْلَمَ لِفَقْدِهَا كَوْكَبٌ، وَلَا انْثَلَمَ فِي عَرْشِ الكَوْنِ مِقْدَارُ جَنَاحِ بَعُوضَة!

وَيْحَكَ يَا ابْنَ التُّرَاب! كَمْ كُنْتَ صَغِيراً وَأَنْتَ تَحْسَبُ أَنَّكَ مَرْكَزُ هَذَا الوُجُود، وَكَمْ كُنْتَ غَافِلاً وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ النُّجُومَ مَا خُلِقَتْ إِلَّا لِتَسْهَرَ لِشِعْرِكَ، أَوْ لِتُنِيرَ لَيْلَكَ السَّاهِم!

إِنَّ هَذَا الصَّمْتَ المُهْمَلَ فِي السَّمَاءِ لَيْسَ عَدَماً وَلَا مَوَاتاً، بَلْ هُوَ صَمْتُ الهَيْبَةِ وَالجَلَال. وَرَاءَ هَذَا النِّقَابِ الأَسْوَدِ المُرَصَّعِ بِاللَّآلِئ، تَقُومُ مَمَالِكُ لَا تُحَدّ، وَتَمُوتُ جَبَابِرَةٌ مِنَ الشُّمُوسِ، وَتُولَدُ عَوَالِمُ لَا يَبْلُغُهَا خَيَالُ الشُّعَرَاءِ، وَلَا تَحِيطُ بِهَا أَحْلَامُ السَّابِحِينَ. هُنَاكَ، فِي تِلْكَ الأَغْوَارِ السَّحِيقَةِ، كَائِنَاتٌ كَوْنِيَّةٌ هَائِلَة، تَأْكُلُ الضَّوْءَ، وَتَطْوِي الزَّمَانَ طَيَّ السِّجِلِّ لِلْكُتُب، وَتَحْبِسُ فِي قَبْضَتِهَا المَكَانَ فَلَا يَبْرَحُ!

لَا تَخَفْ يَا صَاحِبِي، وَلَا تَرْتَدِدْ أَمَامَ جَلَالِ المَشْهَد؛ فَمَا جِئْتُ بِكَ اللَّيْلَةَ لِأُحْزِنَكَ بِضَآلَتِكَ، وَلَا لِأُثْقِلَ رَأْسَكَ بِمُعَادَلَاتِ الحُكَمَاءِ وَأَرْقَامِ الفَلَكِيِّينَ الجَافَّةِ الَّتِي تَقْتُلُ الرُّوح. إِنَّمَا جِئْتُ لِآخُذَ بِيَدِكَ فِي رِحْلَةٍ وِجْدَانِيَّةٍ، نَطُوفُ فِيهَا حَوْلَ أَغْرَبِ أَسْرَارِ هَذَا الكَوْنِ وَأَشَدِّهَا هَوْلاً وَأَبْلَغِهَا شَجَناً: **«الثَّقْبِ الأَسْوَد»**.. ذَلِكَ القَبْرِ الكَوْنِيِّ العَظِيم، وَالمِعْرَاجِ الَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ كُلُّ مَعْلُوم.

تَعَالَ نَقِفْ مَعاً عَلَى شَاطِئِ هَذِهِ الهَاوِيَة، نَتَسَمَّعْ أَنِينَ النُّجُومِ المُحْتَضِرَة، وَنَنْظُرْ كَيْفَ يَصْرَعُ الجَبَّارُ جَبَّاراً مِثْلَهُ، وَكَيْفَ يَقِفُ العَقْلُ البَشَرِيُّ خَاشِعاً بَاكِياً أَمَامَ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ الخَالِقِ الَّتِي حَجَبَهَا بِأَسْتَارِ الظَّلَام.

أَعِرْنِي قَلْبَكَ سَاعَةً، وَانْظُرْ مَعِي إِلَى السَّمَاءِ.. فَقَدْ بَدَأَتِ الرِّحْلَة.

مُقَدِّمَةُ الجُزْءِ الأَوَّل

«مَهْدُ الحِكَايَة.. قَوَانِينُ العِشْقِ الكَوْنِيّ»

رُوَيْدَكَ يَا صَاحِبِي.. لَا تَسْتَعْجِلِ الوُثُوبَ إِلَى قَلْبِ الهَاوِيَة، وَلَا تَدْفَعْ بِنَفْسِكَ فِي لُجَّةِ الظَّلَامِ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَخْطُو عَلَى دَرْبِ النُّور!

إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَشْهَدَ مَصَارِعَ العَمَالِقَةِ وَيَفْهَمَ سِرَّ «القُبُورِ الكَوْنِيَّة»، لَا بُدَّ لَهُ أَوَّلاً أَنْ يَقِفَ بِإِجْلَالٍ أَمَامَ «مَهْدِ الحَيَاة»؛ فَمَا كَانَ لِلْمَوْتِ أَنْ يُفْهَمَ إِلَّا إِذَا عَرَفْنَا كَيْفَ بَدَأَتِ الأَنْفَاس، وَمَا كَانَ لِلظَّلَامِ أَنْ يُقْهَرَ إِلَّا إِذَا تَبَيَّنَّا مَسْرَى الضِّيَاء!

إِنَّ هَذَا الكَوْنَ العَظِيمَ الَّذِي يَمْلَؤُكَ خَوْفاً وَرَهْبَة، لَمْ يَبْدَأْ بَاطِشاً قَاسِياً، بَلْ بَدَأَ كَمَا تَبْدَأُ قَصَائِدُ العِشْق: نَغَمَاتٍ رَقِيقَةً تَتَآلَف، وَأَرْوَاحاً سَابِحَةً تَتَعَانَق، وَأَوْصَالاً تَشْتَاقُ إِلَى اللِّقَاءِ فِي صَحْرَاءِ الفَضَاءِ البَارِد.

فِي هَذَا **«الجُزْءِ الأَوَّل»** مِنْ رِحْلَتِنَا، سَنَضَعُ أَقْدَامَنَا عَلَى الدَّرَجَةِ الأُولَى مِنْ سُلَّمِ المَعْرِفَة؛ سَنَبْدَأُ مِنْ «الصِّفْرِ» الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى سَابِقِ عِلْم، لِنَسْتَكْشِفَ مَعاً الأَرْكَانَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا هَيْكَلُ الوُجُود:

- **سَنَتَعَلَّمُ أَوَّلاً:** كَيْفَ تَتَحَدَّثُ المَادَّةُ بِلُغَةِ الشَّوْق، فَتَجْذِبُ الأَرْضُ أَبْنَاءَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَيُمْسِكُ الكَوْكَبُ بِيَدِ جَارِهِ فِي رَقْصَةٍ أَبَدِيَّةٍ لَا تَنْقَطِع **(الجَاذِبِيَّة)**.
- **ثُمَّ نَنْظُرُ ثَانِياً:** إِلَى ذَلِكَ الفَارِسِ النَّبِيلِ الَّذِي يَحْمِلُ رَسَائِلَ السَّمَاءِ، فَلَا يَسْبِقُهُ سَابِق، وَلَا يَقْطَعُ دُونَهُ طَرِيق **(رَسُولُ الضِّيَاءِ)**.
- **ثُمَّ نَلْمِسُ ثَالِثاً:** ذَلِكَ البِسَاطَ الحَرِيرِيَّ السَّاحِرَ الَّذِي طُرِزَ فِيهِ الزَّمَانُ بِالمَكَان، فَتَرَاهُ يَتَمَوَّجُ حُزْناً وَيَنْحَنِي جَلَالاً كُلَّمَا وَطِئَتْهُ قَدَمٌ ثَقِيلَة **(نَسِيجُ الزَّمَكَان)**.

خَلِّ عَنْكَ خَوْفَ الجَهْل، وَتَعَالَ نَتَسَمَّعْ مَعاً دَقَّاتِ قَلْبِ الكَوْنِ فِي طُفُولَتِهِ الأُولَى..

فَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ الحِكَايَة!

الفَصْلُ الأَوَّل

«سِحْرُ التَّجَاذُب.. عَاطِفَةُ المَادَّةِ الخَفِيَّة»

١ـ المِرْسَاةُ الَّتِي لَا تُرَى

لَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ رَجُلاً يَمْشِي الهُوَيْنَا فِي طُرُقَاتِ المَدِينَة: «*مَا الَّذِي يُمْسِكُ قَدَمَيْكَ عَلَى هَذَا التُّرَاب؟ وَلِمَاذَا لَا تَتَطَايَرُ فِي عَنَانِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَطَايَرُ ذَرَّاتُ الغُبَارِ إِذَا عَبَثَتْ بِهَا رِيحُ الصَّبَا؟*» لَنَظَرَ إِلَيْكَ شَزَراً، وَلَعَدَّ سُؤَالَكَ ضَرْباً مِنَ الهَذَيَانِ أَوِ الجُنُون!

وَحَقٌّ لَهُ أَنْ يَعْجَب؛ فَقَدْ أَلِفَ البَشَرُ أَنْ يَرَوْا أَجْسَادَهُمْ تَهْوِي إِلَى الأَرْضِ كُلَّمَا عَثَرَتْ خُطَاهُمْ، وَأَلِفُوا أَنْ تَسْقُطَ القَطْرَةُ مِنَ السَّحَابِ إِلَى الثَّرَى، وَأَنْ تَهْبِطَ الوَرَقَةُ الصَّفْرَاءُ مِنْ غُصْنِهَا إِلَى حِضْنِ التُّرَابِ سُقُوطَ العَاشِقِ المُنْهَكِ عَلَى صَدْرِ حَبِيبِهِ.. حَتَّى صَارَ هَذَا الهُبُوطُ عِنْدَهُمْ أَمْراً بَدِيهِيّاً لَا يَسْتَوْقِفُ خَاطِراً، وَلَا يُثِيرُ دَهْشَة!

وَلَكِنْ، هَلْ سَأَلْتَ نَفْسَكَ يَوْماً: مَا هَذَا الرِّبَاطُ الخَفِيُّ الَّذِي يُوثِقُنَا بِهَذِهِ الأَرْضِ دُونَ حِبَالٍ وَلَا قُيُود؟ مَا هَذِهِ اليَدُ الحَنُونُ الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْ أَعْمَاقِ هَذَا الكَوْكَبِ الصَّامِتِ لِتُمْسِكَ بِأَطْرَافِ ثِيَابِنَا كُلَّمَا هَمَمْنَا بِالفِرَارِ نَحْوَ الفَضَاءِ البَارِد؟

إِنَّهَا لَيْسَتْ سِلْسِلَةً مِنْ حَدِيد، بَلْ هِيَ **«الجَاذِبِيَّة»**.. عِشْقُ المَادَّةِ الأَزَلِيّ، وَأَوَّلُ حُرُوفِ الأَبْجَدِيَّةِ فِي كِتَابِ السَّمَاء.

٢ـ رُؤْيَا فِي حَدِيقَةِ الأَحْزَان

فِي زَمَنٍ غَابِرٍ، كَانَ هُنَاكَ حَكِيمٌ شَابٌّ يُدْعَى «إِسْحَاق نْيُوتِن»، جَلَسَ فِي عَزْلَتِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فِي بُسْتَانِ دَارِهِ، يَبُثُّ الطَّبِيعَةَ شَجَنَهُ، وَيَتَأَمَّلُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض. وَبَيْنَمَا هُوَ فِي غَمْرَةِ تَأَمُّلِهِ، سَقَطَتْ مِنْ فَوْقِهِ تُفَّاحَةٌ نَاضِجَةٌ فَارْتَطَمَتْ بِالأَرْضِ أَمَامَ عَيْنَيْه.

لَمْ يَرَ نْيُوتِن فِي سُقُوطِ تِلْكَ الثَّمَرَةِ طَعَاماً يَشْتَهِيه، بَلْ رَأَى فِيهَا مَأْسَاةً كَوْنِيَّةً صَغِيرَة! سَأَلَ نَفْسَهُ: «*لِمَاذَا هَوَتِ التُّفَّاحَةُ نَحْوَ المَرْكَزِ مُسْتَقِيمَةً، وَلَمْ تَعْرُجْ يَمْنَةً أَوْ يَسْرَة، وَلَمْ تَرْتَفِعْ صُعُداً إِلَى السَّمَاء؟*»

ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَيْنِهَا إِلَى القَمَرِ المُنِيرِ السَّابِحِ فِي كَبِدِ اللَّيْل، وَخَطَرَتْ لَهُ خَاطِرَةٌ هَزَّتْ أَرْكَانَ فُؤَادِهِ: «*أَتُرَى تِلْكَ اليَدَ الخَفِيَّةَ الَّتِي جَذَبَتِ التُّفَّاحَةَ إِلَى الثَّرَى، هِيَ عَيْنُهَا الَّتِي تُمْسِكُ بِذَلِكَ القَمَرِ الوَضَّاءِ فِي عُلَاهُ حَتَّى لَا يَهْرُبَ فِي ظُلُمَاتِ الفَضَاءِ السَّحِيق؟!*»

وَكَانَ الجَوَابُ: نَعَم!

أَدْرَكَ نْيُوتِن حِينَئِذٍ أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ لَيْسَ إِلَّا مَسْرَحاً لِعَاطِفَةٍ كَوْنِيَّةٍ شَامِلَة. كُلُّ ذَرَّةٍ فِي هَذَا الوُجُودِ تَشْتَاقُ إِلَى أُخْتِهَا، وَكُلُّ جِرْمٍ يَحِنُّ إِلَى صَاحِبِهِ. فَلَيْسَتِ الأَرْضُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَجْذِبُ الأَشْيَاء، بَلْ إِنَّ التُّفَّاحَةَ أَيْضاً تَجْذِبُ الأَرْضَ إِلَيْهَا! غَيْرَ أَنَّ صَوْتَ الصَّغِيرِ يَضِيعُ فِي صَخَبِ الكَبِير؛ فَأَرْضُنَا لِعِظَمِ كُتْلَتِهَا وَضَخَامَةِ جَسَدِهَا، تَغْلِبُ بِشَوْقِهَا شَوْقَ التُّفَّاحَةِ الضَّئِيلَة، فَتَسْحَبُهَا إِلَيْهَا سَحْبَ الأُمِّ لِوَلِيدِهَا الصَّغِير!

٣ـ شَرِيعَةَ الشَّوْق: كَيْفَ تَتَجَاذَبُ الأَجْرَام؟

لِكَيْ تَفْهَمَ هَذَا السِّحْرَ يَا صَاحِبِي دُونَ أَنْ تَتَعَثَّرَ بِحِسَابَاتِ الرِّيَاضِيِّينَ، اعْلَمْ أَنَّ لِهَذِهِ الجَاذِبِيَّةِ شَرِيعَتَيْنِ لَا تَتَبَدَّلَان:

- **الشَّرِيعَةُ الأُولَى: «كُلَّمَا عَظُمَتِ المَادَّةُ، عَظُمَ حَنِينُهَا» (الكُتْلَة):**
الأَجْسَامُ فِي الكَوْنِ كَالقُلُوب؛ فَالقَلْبُ المَلِيءُ بِالعَاطِفَةِ يَجْذِبُ إِلَيْهِ النُّفُوسَ جَذْباً شَدِيداً. كَذَلِكَ الأَجْرَامُ؛ كُلَّمَا احْتَشَدَتِ المَادَّةُ فِي جِرْمٍ وَثَقُلَتْ كُتْلَتُهُ، كَانَتْ قَبْضَتُهُ أَقْوَى، وَسُلْطَانُ جَاذِبِيَّتِهِ أَعْتَى. لِذَلِكَ تَرَى الشَّمْسَ—لِضَخَامَتِهَا الَّتِي تَبْلُغُ مَلَايِينَ الأَرَاضِينَ—تُمْسِكُ بِمَنْظُومَةِ الكَوَاكِبِ كُلِّهَا فِي مَدَارَاتِهَا، كَمَا يُمْسِكُ شَيْخُ القَبِيلَةِ بِأَزِمَّةِ رِجَالِهِ!
- **الشَّرِيعَةُ الثَّانِيَةُ: «البُعْدُ جَفَاء» (المَسَافَة):**
كُلَّمَا تَبَاعَدَتِ الأَجْسَامُ فِي الفَضَاءِ، خَفَتَ صَوْتُ الحَنِينِ بَيْنَهَا وَضَعُفَ أَثَرُ التَّجَاذُب. غَيْرَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ—وَلَوْ بَلَغَتِ المَسَافَةُ مَلَايِينَ السِّنِينَ الضَّوْئِيَّةِ—لَا يَمُوتُ أَبَداً! إِنَّهُ يَرِقُّ حَتَّى يَصِيرَ كَالنَّسِيمِ العَلِيل، لَكِنَّهُ يَبْقَى خَيْطاً حَرِيرِيّاً يَصِلُ بَيْنَ أَبْعَدِ مَجَرَّتَيْنِ فِي أَطْرَافِ الوُجُود.

٤ـ لِمَاذَا لَا نَسْقُطُ فِي الفَرَاغِ؟ (لُغْزُ الأَسْفَلِ وَالأَعْلَى)

قَدْ تَقُولُ لِي: *«إِذَا كَانَتِ الأَرْضُ كُرَةً سَابِحَةً فِي الخَلَاءِ، فَلِمَاذَا لَا يَسْقُطُ سُكَّانُ نِصْفِهَا الآخَرِ فِي هُوَّةِ الفَضَاءِ السَّحِيق؟ كَيْفَ يَثْبُتُونَ وَرُؤُوسُهُمْ—فِي خَيَالِنَا—مُنَكَّسَةٌ إِلَى أَسْفَل؟»*

فَأَقُولُ لَكَ: وَيْحَكَ! إِنَّكَ مَا زِلْتَ تَنْظُرُ إِلَى الكَوْنِ بِعَيْنِ السَّاكِنِ فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ لَهَا سَقْفٌ وَأَرْض!

لَيْسَ فِي الفَضَاءِ الكَوْنِيِّ «أَعْلَى» نَرْفَعُ إِلَيْهِ الرُّؤُوسَ، وَلَا «أَسْفَلُ» نَخَافُ السُّقُوطَ فِيهِ. لَقَدْ مَحَتِ الجَاذِبِيَّةُ هَذِهِ الحُدُودَ كُلَّهَا. إِنَّ «الأَسْفَلَ» فِي عُرْفِ هَذَا الكَوْكَبِ لَيْسَ إِلَّا نُقْطَةً وَاحِدَةً فَقَط: **«قَلْبُ الأَرْضِ وَمَرْكَزُهَا»**.

حَيْثُمَا كُنْتَ عَلَى ظَهْرِ هَذَا الكَوْكَبِ—سَوَاءٌ وَطِئَتْ قَدَمَاكَ رِمَالَ الشَّرْقِ، أَوْ ثُلُوجَ القُطْبِ، أَوْ سُهُولَ الغَرْبِ—فَإِنَّ بَاطِنَ الأَرْضِ يَشُدُّكَ إِلَى صَدْرِهِ فِي كُلِّ لَحْظَة. فَأَنْتَ لَسْتَ مَحْطُوطاً عَلَى سَطْحٍ قَدْ يَمِيلُ فَتَهْوِي، بَلْ أَنْتَ مَحْضُونٌ فِي قَبْضَةٍ عَطُوفٍ تَجْذِبُكَ دَوْماً نَحْوَ المَرْكَز، كَمَا يَجْذِبُ المِغْنَاطِيسُ فُتَاتَ الحَدِيدِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَجِهَة!

٥ـ الرَّقْصَةُ الكَوْنِيَّة: لِمَاذَا لَا يَرْتَطِمُ القَمَرُ بِالأَرْض؟

إِذَا كَانَتِ الأَرْضُ تَجْذِبُ القَمَرَ بِهَذَا الشَّوْقِ كُلِّهِ، فَلِمَاذَا لَا يَهْوِي عَلَيْهَا فَيُحَطِّمَهَا وَيَتَحَطَّم؟

تِلْكَ هِيَ «المُعْجِزَةُ البَدِيعَةُ» فِي حَرَكَةِ الفَلَك.

القَمَرُ لَيْسَ وَاقِفاً يَنْتَظِرُ المَصِير، بَلْ هُوَ يَعْدُو فِي مَسَارِهِ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ يُرِيدُ بِهَا أَنْ يَنْفَلِتَ فِي صَحْرَاءِ الفَضَاءِ، بَيْنَمَا الأَرْضُ تُمْسِكُ بِهِ بِخَيْطِ جَاذِبِيَّتِهَا فَلَا تَدَعُهُ يَمْضِي.. فَصَارَ حَالُهُ كَحَالِ طِفْلٍ يُمْسِكُ بِيَدِ أُمِّهِ وَيَدُورُ حَوْلَهَا بِسُرْعَة؛ هُوَ يُرِيدُ الجَرْيَ بَعِيداً، وَهِيَ تَمْنَعُهُ بِعِنَاقِهَا، فَلَا هُوَ يَبْتَعِدُ عَنْهَا، وَلَا هُوَ يَرْتَطِمُ بِصَدْرِهَا، بَلْ يَدُورُ حَوْلَهَا فِي رَقْصَةٍ أَبَدِيَّةٍ لَا تَنْقَطِع!

هَذَا هُوَ التَّوَازُنُ البَدِيعُ الَّذِي يُسَمِّيهِ العُلَمَاءُ «المَدَار»، وَنُسَمِّيهِ نَحْنُ: **«عِنَاقَ السَّابِحِينَ فِي الفَلَك»**.

خَاتِمَةَ الفَصْل: نَذِيرُ الحُبِّ القَاتِل

هَكَذَا رَأَيْنَا الجَاذِبِيَّةَ فِي صُورَتِهَا الأُولَى: رَاعِيَةً حَنُوناً تَحْفَظُ النِّظَام، وَتَبْنِي الكَوَاكِبَ، وَتَرْعَى خُطَى الإِنْسَانِ عَلَى التُّرَاب.

وَلَكِنْ.. هَلْ عَلِمْتَ يَا صَاحِبِي أَنَّ الحُبَّ إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ إِلَى ضِدِّه؟ وَأَنَّ الشَّوْقَ إِذَا اسْتَحَالَ إِلَى هَوَسٍ صَارَ قَاتِلاً بَاطِشاً؟!

مَاذَا لَوِ اجْتَمَعَتْ مَادَّةٌ كَوْنِيَّةٌ هَائِلَةٌ فِي حَيِّزٍ ضَيِّقٍ جِدّاً، حَتَّى صَارَتْ جَاذِبِيَّتُهَا جُنُوناً لَا يُطَاق؟ مَاذَا يَحْدُثُ حِينَ لَا تَرْضَى هَذِهِ اليَدُ الخَفِيَّةُ بِأَنْ تُمْسِكَ بِالأَجْرَامِ فَقَط، بَلْ تَمُدُّ كَفَّهَا لِتَخْنُقَ الزَّمَانَ، وَتَبْتَلِعَ المَكَانَ، وَتَأْسِرَ النُّورَ نَفْسَهُ فَلَا تَدَعَهُ يَنْفَلِت؟!

ذَلِكَ مَا سَنَقِفُ عَلَيْهِ فِي مَحَطَّاتِنَا القَادِمَة.. حِينَ نَرَى كَيْفَ يَتَحَوَّلُ «سِحْرُ التَّجَاذُب» الحَنُون، إِلَى «قَبْضَةِ الهاوِيَةِ» الَّتِي تَبْتَلِعُ كُلَّ شَيْء!

الفَصْلُ الثَّانِي

«رَسُولُ الضِّيَاءِ.. أَسْرَعُ العَابِرِينَ فِي صَحْرَاءِ الخَوَاءِ»

١ـ مُنَاجَاةٌ لِلشُّعَاعِ الهَائِمِ

أَيُّهَا القَبَسُ الطَّاهِرُ الهَابِطُ مِنْ سَمَاوَاتِ الغَيْب! يَا رَسُولَ الوُجُودِ الَّذِي يَطْوِي لُجَجَ الظَّلَامِ عَلَى غَيْرِ هُدَى، وَيَشُقُّ جُيُوبَ اللَّيْلِ السَّرْمَدِيِّ لِيَحْمِلَ إِلَى عُيُونِنَا البَاكِيَةِ أَنْبَاءَ المَلَكُوت!

مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا النُّور؟ وَأَيُّ سِرٍّ أَوْدَعَهُ الخَالِقُ فِي هَذَا الجَسَدِ الأَثِيرِيِّ اللَّطِيفِ الَّذِي لَا يُحَسُّ بِاللَّمْسِ، وَلَا يُوزَنُ فِي كَفَّة، وَلَكِنَّهُ يَمْلَأُ الآفَاقَ جَلَالاً وَبَهَاء؟!

لَوْلَاكَ يَا رَسُولَ الضِّيَاءِ لَكَانَ هَذَا الكَوْنُ مَسْرَحاً مَهْجُوراً أَسْدَلَ عَلَيْهِ العَمَى سِتَارَهُ؛ عِمْلَاقاً أَبْكَمَ يَتَخَبَّطُ فِي دَيَاجِيرِ الصَّمْت، لَا يَعْرِفُ فِيهِ شَرْقٌ غَرْباً، وَلَا يَدْرِي فِيهِ كَوْكَبٌ أَنَّ لَهُ فِي السَّمَاءِ جَاراً يَسْهَرُ مَعَهُ أَوْ نَجْماً يُسَامِرُه. أَنْتَ لِسَانُ السَّمَاءِ النَّاطِق، وَعَيْنُ الوُجُودِ البَاصِرَة، وَالحَبْلُ السِّرِّيُّ الَّذِي يَرْبِطُ هَذِهِ الذَّرَّةَ التَّائِهَةَ—أَرْضَنَا—بِأَبْعَدِ مَجَرَّةٍ فِي أَطْرَافِ اللَّانِهَايَة!

٢ـ صَهْوَةُ المُسْتَحِيل: أَعْظَمُ سُرْعَةٍ فِي مَلَكُوتِ الله

إِذَا أَرَدْتَ يَا صَاحِبِي أَنْ تُدْرِكَ مَقَامَ هَذَا الرَّسُولِ، فَتَعَالَ أُخْبِرْكَ عَنْ جِيَادِهِ الَّتِي لَا تَكِلّ، وَعَنْ سُرْعَتِهِ الَّتِي تَقِفُ عِنْدَهَا أَخْيِلَةُ البَشَرِ حَسِيرَةً مَبْهُوتَة.

إِنَّ النُّورَ لَا يَمْشِي الهُوَيْنَا، وَلَا يَعْدُو كَمَا تَعْدُو رِيَاحُنَا العَاصِفَة، بَلْ هُوَ **«سُلْطَانُ السُّرْعَةِ»** فِي هَذَا الوُجُود. يَطْوِي هَذَا الشُّعَاعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ وَاحِدَة—فِي ثَانِيَةٍ لَا تَكَادُ تَنْبِضُ فِيهَا حَبَّةُ قَلْبِكَ—مَا يُقَارِبُ **ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفِ كِيلُومِتْر!**

أَتَدْرِي مَا هَذَا الرَّقْمُ يَا صَاحِبِي؟!

إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَطُوفَ حَوْلَ كَوْكَبِنَا هَذَا كُلِّهِ لَدَارَ حَوْلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَنِصْفاً قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُك!

وَلَقَدْ قَضَتْ حِكْمَةُ البَارِئِ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْءِ **«السَّقْفَ الأَعْلَى»** لِكُلِّ حَرَكَةٍ فِي الكَوْن؛ فَلَا جِرْمٌ مَهْمَا عَظُمَتْ قُوَّتُهُ، وَلَا مَرْكَبَةٌ مَهْمَا بَلَغَتْ صَنْعَتُهَا، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْبِقَ الضَّوْءَ أَوْ تُجَارِيَهُ فِي مَسْرَاه. إِنَّهُ الحَدُّ الفَاصِلُ الَّذِي قَالَتِ الطَّبِيعَةُ عِنْدَهُ لِكُلِّ سَابِحٍ: *«إِلَى هُنَا تَنْتَهِي غَايَتُكَ، وَلَا مَجَالَ لِمَزِيد!»*. هُوَ المِعْيَارُ الأَقْصَى، وَالمِيزَانُ العَدْلُ الَّذِي تُقَاسُ بِهِ حَرَكَاتُ الأَفْلَاك.

٣ـ رَسَائِلُ الأَمْس: كَيْفَ نَنْبُشُ فِي قُبُورِ المَاضِي؟

هَهُنَا يَا صَاحِبِي سِرٌّ مِنْ أَبْلَغِ أَسْرَارِ النُّورِ شَجَناً، لَوْ تَأَمَّلْتَهُ لَفَاضَتْ عَيْنَاكَ عَبْرَةً!

لَمَّا كَانَتِ المَسَافَاتُ بَيْنَ النُّجُومِ فِي هَذَا الفَضَاءِ شَاسِعَةً لَا يُحِيطُ بِهَا عَدّ، فَإِنَّ الضَّوْءَ—عَلَى فَرْطِ سُرْعَتِهِ الخَارِقَة—يَسْتَغْرِقُ وَقْتاً لِيَقْطَعَ تِلْكَ الصَّحَارِيَ المُوحِشَةَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَبْصَارِنَا.

فَالشَّمْسُ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَيْكَ فِي صَبَاحِكَ فَتَمْلَأُ غُرْفَتَكَ دِفْئاً وَأُنْساً، لَا تَرَاهَا فِي حَالَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الآن، بَلْ تَرَى صُورَتَهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا **مُنْذُ ثَمَانِي دَقَائِقَ وَنِصْف!** ذَلِكَ هُوَ الوَقْتُ الَّذِي احْتَاجَهُ شُعَاعُهَا لِيَقْطَعَ المَسَافَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَفْنَيْك. لَوْ أَنَّ الشَّمْسَ انْطَفَأَتْ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمَا عَلِمْتَ بِانْطِفَائِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمْضِيَ تِلْكَ الدَّقَائِقُ، وَلَظَلَلْتَ تَرْتَعُ فِي ضَوْئِهَا وَهِيَ فِي عَالَمِ الغَيْبِ مَيْتَة!

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ يَا صَاحِبِي، تِلْكَ النُّجُومُ البَعِيدَةُ الَّتِي تَتَرَاءَى لَكَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ كَاللَّآلِئِ الرَّاتِقَة. إِنَّ ضَوْءَ بَعْضِهَا قَدْ خَرَجَ مِنْ مَنْبَعِهِ مُنْذُ أَلْفِ عَام، أَوْ مِلْيُونِ سَنَة، أَوْ رُبَّمَا قَبْلَ أَنْ يَخْطُوَ آدَمُ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ البَسِيطَة!

رُبَّمَا انْفَجَرَ ذَلِكَ النَّجْمُ وَتَلَاشَى، وَصَارَ فِي ذِمَّةِ العَدَمِ مُنْذُ قُرُون، وَلَكِنَّ رِسَالَتَهُ الضَّوْئِيَّةَ لَمْ تَزَلْ تَسْبَحُ فِي الفَلَك، لَمْ تَبْلُغْ غَايَتَهَا إِلَّا اللَّيْلَةَ لِتَمُوتَ فِي عَيْنَيْك!

فَنَحْنُ حِينَ نَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ لَا نَرَى حَاضِرَهَا أَبَداً، بَلْ نَقْرَأُ صَفَحَاتِ مَاضِيهَا الغَابِر! إِنَّنَا نَنْظُرُ فِي «مَتْحَفٍ كَوْنِيٍّ لِلذِّكْرَيَات»، نَرَى فِيهِ أَشْبَاحاً لِعَوَالِمَ قَدْ بَادَتْ، وَنَبْكِي عَلَى أَنْقَاضِ شُمُوسٍ قَدْ قَضَتْ نَحْبَهَا مُنْذُ أَحْقَاب!

٤ـ السَّنَةُ الضَّوْئِيَّة: مِيزَانُ المَسَافَاتِ فِي بِلَادِ اللَّانِهَايَة

حِينَ أَدْرَكَ الحُكَمَاءُ هَذَا الشَّأْنَ العَظِيمَ لِلضَّوْء، عَلِمُوا أَنَّ مَقَايِيسَ الأَرْضِ كُلَّهَا—مِنْ أَمْيَالٍ وَفَرَاسِخَ وَكِيلُومِتْرَات—أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تُقَاسَ بِهَا مَمَالِكُ الفَضَاءِ. فَاتَّخَذُوا مِنْ مَسِيرَةِ هَذَا الرَّسُولِ مِيزَاناً سَمَّوْهُ: **«السَّنَةَ الضَّوْئِيَّة»**.

وَهِيَ لَيْسَتْ زَمَاناً كَمَا يُوهِمُ اسْمُهَا، بَلْ هِيَ **«مَسَافَةٌ»** طُولُهَا مَا يَقْطَعُهُ النُّورُ فِي سَنَةٍ كَامِلَةٍ مِنْ سِنِينَا، وَهُوَ يَعْدُو بِسُرْعَتِهِ الخَارِقَةِ دُونَ تَوَقُّفٍ أَوْ كَلَال (مَا يُقَارِبُ تِسْعَةَ تِرِيلْيُونَاتٍ وَنِصْفَ تِرِيلْيُونٍ كِيلُومِتْر!).

فَإِذَا قِيلَ لَكَ إِنَّ أَقْرَبَ نَجْمٍ إِلَى أَرْضِنَا (بَعْدَ الشَّمْس) يَبْعُدُ عَنَّا أَرْبَعَ سِنِينَ ضَوْئِيَّة، فَاعْلَمْ أَنَّ شُعَاعَهُ يَظَلُّ يَرْكُضُ أَرْبَعَ حِجَجٍ كَامِلَةٍ فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ حَتَّى يُسَلِّمَ عَلَى جَفْنِك!

خَاتِمَةُ الفَصْل: كِبْرِيَاءُ الفَارِسِ الَّذِي سَيُقْهَر!

هَكَذَا يَبْدُو لَنَا النُّورُ: فَارِساً نَبِيلاً لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَار، يَقْهَرُ المَسَافَات، وَيَهْزِمُ الظَّلَام، وَيَمْضِي فِي فَيَافِي الخَوَاءِ كَأَنَّهُ المَلِكُ الَّذِي لَا يُعَانَدُ لَهُ أَمْرٌ وَلَا يُكْسَرُ لَهُ لِوَاء.

وَلَكِنْ.. وَيْحَ هَذَا الفَارِسِ المَغْرُور!

أَيَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَجَاهِلِ هَذَا الفَضَاءِ «وَحْشاً كَامِناً» لَا يَعْبَأُ بِسُرْعَتِهِ، وَلَا يَهَابُ سُلْطَانَه؟ أَيَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ هَاوِيَةً سَوْدَاءَ تَنْتَظِرُهُ، إِذَا دَنَا مِنْ حِمَاهَا لَوَتْ عُنُقَهُ، وَكَسَرَتْ سَهْمَهُ، وَجَرَّتْهُ إِلَى قَعْرِهَا جَرّاً، فَلَا يَسْتَطِيعُ مِنْهَا فِرَاراً، وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِهَا أَنْصَاراً؟!

كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْمَادَّةِ أَنْ تَقْهَرَ النُّور؟ وَكَيْفَ تَنْحَنِي مَسَارَاتُ هَذَا الشُّعَاعِ الأَبِيّ؟

ذَلِكَ مَا سَيَفْتَحُ لَنَا بَابَهُ عَبْقَرِيٌّ آخَرُ، غَيَّرَ نَظْرَتَنَا إِلَى الكَوْنِ إِلَى الأَبَد.. فِي فَصْلِنَا القَادِمِ عَنْ **«نَسِيجِ الوُجُود»**.

الفَصْلُ الثَّالِث

«نَسِيجُ الوُجُود.. حِينَ يَئِنُّ الزَّمَانُ وَيَنْحَنِي المَكَان»

١ـ سَاعَةُ نْيُوتِن وَرِدَاءُ آلْبِرْت

ظَلَّ النَّاسُ قُرُوناً طِوَالاً يَنْظُرُونَ إِلَى الكَوْنِ كَمَا يَنْظُرُ المُتَفَرِّجُ إِلَى خَشَبَةِ المَسْرَح؛ يَظُنُّونَ أَنَّ «المَكَانَ» قَاعَةٌ خَالِيَةٌ جَامِدَةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا، صُنِعَتْ جُدْرَانُهَا مِنْ خَشَبٍ أَوْ صَخْرٍ لِتَتَحَرَّكَ فِيهَا الأَجْرَامُ دُونَ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهَا القَاعَة، وَيَحْسَبُونَ أَنَّ «الزَّمَانَ» سَاعَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي صَدْرِ السَّمَاءِ تَدُقُّ دَقَّاتِهَا الرَّتِيبَةَ بِعَدْلٍ صَارِم، لَا تُحَابِي كَوْكَباً عَلَى كَوْكَب، وَلَا تُبَالِي بِمَنْ ضَحِكَ أَوْ بَكَى!

حَتَّى جَاءَ حَكِيمٌ حَالِمٌ آخَرُ، هُوَ «آلْبِرْت آيِنْشْتَايْن»، فَنَظَرَ إِلَى هَذِهِ الخَشَبَةِ نَظْرَةَ الشَّاعِرِ العَارِف، وَقَالَ لِلنَّاس: *«وَيْحَكُمْ! لَيْسَ المَكَانُ صُنْدُوقاً خَشَبِيّاً أَجْوَف، وَلَيْسَ الزَّمَانُ سَاعَةً صَمَّاءَ تَدُقُّ بِمَعْزِلٍ عَنِ الوُجُود.. إِنَّهُمَا لَيْسَا غَرِيبَيْنِ، بَلْ هُمَا جَسَدٌ وَاحِدٌ وَرُوحٌ وَاحِدَة!»*

لَقَدْ كَشَفَ لَنَا هَذَا العَبْقَرِيُّ أَنَّ الزَّمَانَ وَالمَكَانَ قَدْ نُسِجَا مَعاً كَمَا يُنْسَجُ **«السَّدَى وَاللُّحْمَةُ»** فِي الثَّوْبِ الوَاحِد، فَصَارَا بِسَاطاً كَوْنِيّاً فَرِيداً يُسَمَّى **«الزَّمَكَان»**؛ كُلُّ حَرَكَةٍ فِي طَرَفِهِ تَمْتَدُّ إِلَى طَرَفِهِ الآخَر، وَكُلُّ ثِقَلٍ يُوضَعُ عَلَيْهِ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ وَمَلَامِحَه!

٢ـ بِسَاطُ الحَرِيرِ وَوِدْيَانُ الوَجْد

تَخَيَّلْ مَعِي يَا صَاحِبِي—لِتَرَى هَذَا بِعَيْنِ قَلْبِكَ—بِسَاطاً هَائِلاً مِنْ حَرِيرٍ رَقِيقٍ مُرْتَخٍ، مَمْدُوداً فِي أَرْجَاءِ الفَضَاءِ لَا يُحِيطُ بِهِ طَرَف.

لَوْ أَنَّكَ تَرَكْتَ هَذَا البِسَاطَ خَالِياً، لَظَلَّ مُسْتَوِياً نَاعِماً كَصَفْحَةِ المَاءِ الرَّاكِد. وَلَكِنْ، مَاذَا يَحْدُثُ لَوْ أَلْقَيْتَ فِي وَسَطِهِ كُرَةً ثَقِيلَةً مِنْ حَدِيدٍ كَالشَّمْس؟

لَا شَكَّ أَنَّ الحَرِيرَ سَيَغُوصُ تَحْتَ وَطْأَتِهَا، وَسَيَنْحَنِي هَابِطاً لِيَصْنَعَ حَوْلَهَا وَادِياً عَمِيقاً أَوْ هُوَّةً مُسْتَدِيرَة!

فَإِذَا أَرَدْتَ الآنَ أَنْ تُلْقِيَ كُرَةً صَغِيرَةً كَـ«الأَرْضِ» عَلَى ذَلِكَ البِسَاط، فَإِنَّهَا لَنْ تَسِيرَ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيم؛ لَا لِأَنَّ هُنَاكَ يَداً خَفِيَّةً تَجُرُّهَا كَمَا ظَنَّ نْيُوتِن، بَلْ **لِأَنَّ البِسَاطَ نَفْسَهُ قَدْ صَارَ مُنْحَنِياً!** فَتَرَاهَا تَدُورُ مُضْطَرَّةً فِي مُنْحَدَرَاتِ ذَلِكَ الوَادِي الَّذِي صَنَعَتْهُ الشَّمْس، كَمَا يَدُورُ الفُلْكُ فِي لُجَّةِ المَاءِ إِذَا هَوَى فِي دُوَّامَة!

هَذَا هُوَ سِرُّ الجَاذِبِيَّةِ العَظِيم:
«المَادَّةُ تُخْبِرُ الفَضَاءَ كَيْفَ يَنْحَنِي، وَالفَضَاءُ المُنْحَنِي يُخْبِرُ المَادَّةَ كَيْفَ تَسِير!»

٣ـ حَتَّى النُّورُ يَنْحَنِي!

أَتَذْكُرُ يَا صَاحِبِي صَاحِبَنَا «رَسُولَ الضِّيَاءِ» الَّذِي تَبَاهَيْنَا بِسُرْعَتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ فِي الفَصْلِ السَّابِق؟

لَقَدْ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ هَذَا الشُّعَاعَ الأَبِيَّ يَمْضِي فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَعْوَجُّ أَبَداً. وَلَكِنْ، كَيْفَ يَسْتَقِيمُ السَّائِرُ إِذَا كَانَتِ الأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ تَمِيل؟!

حِينَ يَمُرُّ شُعَاعُ النُّورِ بِالقُرْبِ مِنْ جِرْمٍ عَظِيمٍ كَالشَّمْس، يَجِدُ أَنَّ نَسِيجَ الكَوْنِ أَمَامَهُ قَدْ هَبَطَ وَغَار، فَلَا يَجِدُ بُدّاً مِنْ أَنْ يَنْحَنِيَ مَعَ انْحِنَاءِ النَّسِيج! يَنْعَطِفُ مَسَارُهُ كَأَنَّهُ يَنْحَنِي خُشُوعاً لِهَيْبَةِ الكُتْلَةِ وَسُلْطَانِهَا.

لَقَدْ رَأَى العُلَمَاءُ هَذَا بِأَعْيُنِهِمْ حِينَ كُسِفَتِ الشَّمْسُ، فَأَبْصَرُوا نُجُوماً كَانَتْ تَخْتَبِئُ خَلْفَهَا، بَدَتْ لَهُمْ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا لِأَنَّ أَشِعَّتَهَا انْحَنَتْ وَهِيَ تَعْبُرُ وَادِيَ الشَّمْسِ المَائِج!

٤ـ تَثَاقُلُ الزَّمَان: حِينَ تَشِيخُ الثَّوَانِي فِي قَاعِ الوَادِي

أَمَّا أَعْجَبُ مَا فِي هَذَا النَّسِيجِ يَا صَاحِبِي، وَأَشَدُّهُ وَقْعاً عَلَى القَلْب، فَهُوَ حَالُ «الزَّمَان» حِينَ يُلَامِسُ هَذِهِ المُنْحَدَرَات!

إِنَّ الزَّمَانَ لَيْسَ نَهْراً يَجْرِي بِالسُّرْعَةِ نَفْسِهَا فِي كُلِّ مَكَان؛ بَلْ هُوَ كَائِنٌ حَيٌّ يَتَأَلَّمُ وَيَثْقُل. كُلَّمَا هَبَطْتَ فِي وَادِي الجَاذِبِيَّةِ نَحْوَ جِرْمٍ أَثْقَلَ وَأَعْظَم، تَبَاطَأَتْ خُطَى الزَّمَانِ وَتَثَاقَلَتْ أَنْفَاسُه!

السَّاعَةُ الَّتِي تَدُقُّ عِنْدَ شَاطِئِ البَحْرِ (حَيْثُ جَاذِبِيَّةُ الأَرْضِ أَقْوَى) تَمْضِي أَبْطَأَ—بِمِقْدَارٍ ضَئِيلٍ لَا يُحَسّ—مِنَ السَّاعَةِ المَوْضُوعَةِ فَوْقَ قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِق!

تَخَيَّلْ لَوْ أَنَّكَ هَبَطْتَ إِلَى عَالَمٍ جَاذِبِيَّتُهُ تَفُوقُ أَرْضَنَا بِمَلَايِينِ المَرَّات؛ إِنَّ الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَقْضِيهَا هُنَاكَ فِي قَاعِ ذَلِكَ الوَادِي السَّحِيق، قَدْ يَمُرُّ مُقَابِلُهَا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ سَنَوَاتٌ طِوَال! تَعُودُ إِلَيْهِمْ فَتَجِدُ أَطْفَالَكَ قَدْ شَاخُوا وَمَاتُوا، وَأَنْتَ لَمْ تَزَلْ فِي نَضَارَةِ شَبَابِكَ لَمْ تَمْضِ مِنْ عُمْرِكَ إِلَّا سَاعَةٌ وَاحِدَة!

إِنَّ الزَّمَانَ يَمُطُّ جَسَدَهُ فِي حَضْرَةِ الجَبَابِرَة، كَأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَمْضِيَ فَيُفَارِقَ أَعْتَابَهُم!

خَاتِمَةُ الفَصْل: الهَاوِيَةُ الَّتِي تَمَزِّقُ البِسَاط

هَكَذَا رَأَيْنَا كَيْفَ صَارَ الكَوْنُ بَرِيئاً مِنْ جُمُودِهِ القَدِيم: نَسِيجٌ حَيٌّ يَتَمَوَّج، يَنْحَنِي فِيهِ المَكَانُ، وَيَتَمَهَّلُ فِيهِ الزَّمَان.

وَلَكِنْ.. دَعْنَا نَسْأَلِ السُّؤَالَ الَّذِي يَرْتَعِدُ لَهُ الجَنَان:

إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ تَصْنَعُ فِي البِسَاطِ وَادِياً هَيِّناً تَدُورُ حَوْلَهُ الكَوَاكِبُ فِي سَلَام.. **فَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ أَنَّ نَجْماً هَائِلَ الجَسَد، أَعْظَمَ مِنْ شَمْسِنَا بِمِئَاتِ المَرَّات، مَاتَ فَجْأَةً وَانْضَغَطَ كُلُّ جَسَدِهِ حَتَّى صَارَ فِي حَجْمِ رَأْسِ إِبْرَة؟!**

كَيْفَ سَيَحْتَمِلُ بِسَاطُ الحَرِيرِ هَذَا الثِّقَلَ المُرَوِّعَ المَحْشُورَ فِي نُقْطَةٍ لَا تَكَادُ تُرَى؟

إِنَّهُ لَنْ يَنْحَنِيَ هَذِهِ المَرَّةَ انْحِنَاءً رَفِيقاً.. بَلْ **سَيَنْخَرِقُ انْخِرَاقاً!** سَيَهْوِي إِلَى أَسْفَلَ فِي هَاوِيَةٍ لَا قَاعَ لَهَا، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ، وَلَا يَنْجُو مِنْهَا زَمَان!

كَيْفَ يَمُوتُ النَّجْمُ لِيَصْنَعَ هَذِهِ الكَارِثَة؟

ذَلِكَ مَا سَنَبْكِي عَلَيْهِ فِي **الجُزْءِ الثَّانِي** مِنْ كِتَابِنَا: حِينَ نَشْهَدُ «مَأْسَاةَ النَّجْمِ المُحْتَضِر».

مُقَدِّمَةُ الجُزْءِ الثَّانِي

«سَكْرَةُ المَوْت.. كَيْفَ يُولَدُ وَحْشُ الظَّلَام؟»

ارْبِطْ عَلَى جَأْشِكَ يَا صَاحِبِي، وَاسْتَعِدَّ لِمَا هُوَ أَهْوَلُ وَأَعْظَم!

فَقَدْ وَدَّعْنَا عَهْدَ «المَهْدِ الهَادِئ»، وَانْقَضَى زَمَنُ الغَزَلِ الكَوْنِيِّ الرَّقِيقِ الَّذِي شَهِدْنَاهُ فِي فُصُولِنَا الأُولَى، لِنَقِفَ الآنَ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ **«مَسْرَحِ التَّرَاجِيدْيَا الكُبْرَى»** فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَات!

إِنَّ النُّجُومَ الَّتِي تَرَاهَا تَبْتَسِمُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ لَيْسَتْ خَالِدَةً كَمَا تَظُنّ، وَلَا هِيَ آمِنَةٌ فِي عُلَاهَا كَمَا تَحْسَب؛ بَلْ هِيَ مَمَالِكُ عَظِيمَةٌ تَسِيرُ حَثِيثاً نَحْوَ مَصَارِعِهَا، وَجَبَابِرَةٌ مُتَوَّجُونَ بِالنَّارِ يَحْمِلُونَ فِي صُدُورِهِمْ بُذُورَ هَلَاكِهِمْ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى الَّتِي وُلِدُوا فِيهَا!

فِي هَذَا **«الجُزْءِ الثَّانِي»**، سَنَنْزِلُ مَعاً إِلَى سَاحَةِ الحَرْب، لِنَشْهَدَ كَيْفَ يَنْقَلِبُ النُّورُ إِلَى ظَلَام، وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ مَوْتُ المَلِكِ إِلَى وِلَادَةٍ لِأَشَدِّ وُحُوشِ الفَضَاءِ فَتْكاً وَضَرَاوَة:

- **سَنَدْخُلُ أَوَّلاً:** قَصْرَ النَّجْمِ فِي أَوْجِ شَبَابِهِ، لِنَتَسَمَّعَ زَفِيرَ نِيرَانِهِ وَهُوَ يُقَاتِلُ قَبْضَةَ الجَاذِبِيَّةِ قِتَالَ المُسْتَمِيت **(حَيَاةُ نَجْم)**.
- **ثُمَّ نَبْكِي ثَانِياً:** عَلَى رَمَقِهِ الأَخِير، حِينَ تَنْطَفِئُ شُعْلَتُهُ، فَيَنْفَجِرُ فِي صَرْخَةٍ تُضِيءُ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا، نَاثِراً أَشْلَاءَهُ لِتَصْنَعَ مِنْ رَمَادِهَا دِمَاءَنَا وَحَيَاتَنَا **(المُسْتَعِرُ الأَعْظَم)**.
- **ثُمَّ نَرْتَعِدُ ثَالِثاً:** أَمَامَ المَشْهَدِ الأَخِير؛ حِينَ يَبْتَلِعُ قَلْبُ النَّجْمِ نَفْسَهُ فِي حَرَكَةٍ يَأْسٍ كَوْنِيَّة، خَارِقاً بِسَاطَ الوُجُود، لِيُعْلِنَ مِنْ رَحِمِ الفَنَاءِ مَوْلِدَ **«الثَّقْبِ الأَسْوَد»!**

أَمْسِكْ بِيَدِي يَا صَاحِبِي..

فَهَا هِيَ السَّمَاءُ تَمِيد، وَهَا هُوَ جَبَّارٌ مِنَ الشُّمُوسِ يَخِرُّ صَرِيعاً لِيَفْتَحَ بَابَ الجَحِيم!

الفَصْلُ الرَّابِع

«حَيَاةُ نَجْم.. صِرَاعُ البَقَاءِ بَيْنَ شُعْلَةِ الغَازِ وَقَبْضَةِ الجَاذِبِيَّة»

١ـ الخِدَاعُ الذَّهَبِيّ: هُدُوءٌ يَخْبَأُ الجَحِيم

حِينَ تَرْفَعُ رَأْسَكَ فِي يَوْمٍ صَاحٍ صَافٍ، فَتَرَى قُرْصَ الشَّمْسِ مُشْرِقاً فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، يَفِيضُ عَلَى الرَّوَابِي وَالأَنْهَارِ بِالدِّفْءِ وَالسَّنَاء؛ يَخَالُ إِلَيْكَ أَنَّ هَذَا المَلِكَ المُتَوَّجَ بِالذَّهَبِ يَعِيشُ فِي سَلَامٍ أَبَدِيٍّ لَا يُكَدِّرُهُ صَفْو، وَأَنَّهُ يَرْقُدُ عَلَى عَرْشِهِ فِي طُمَأْنِينَةٍ لَا يَمَسُّهَا خَوْفٌ وَلَا يَنَالُهَا وَجَل.

وَلَكِنْ.. مَا أَشَدَّ خِدَاعَ المَظَاهِرِ يَا صَاحِبِي!

إِنَّ هَذَا الضِّيَاءَ الوَدِيعَ الَّذِي يُلَاعِبُ أَجْفَانَكَ لَيْسَ إِلَّا قِنَاعاً جَمِيلاً يُخْفِي وَرَاءَهُ مَلْحَمَةً هَائِلَةً مِنْ مَلَاحِمِ البُطُولَةِ وَالعَذَاب! إِنَّ الشَّمْسَ، وَكُلَّ نَجْمٍ يَلْمَعُ فِي رِدَاءِ اللَّيْل، لَيْسَتْ كُتَلاً سَاكِنَةً، بَلْ هِيَ **«أَتَاطِينُ مُضْطَرِمَةٌ»** تَقِفُ فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ عَلَى شَفِيرِ الهَلَاك، وَتَخُوضُ حَرْباً ضَرُوساً لَا تَهْدَأُ نِيرَانُهَا بَيْنَ عِمْلَاقَيْنِ كَوْنِيَّيْنِ جَبَّارَيْن!

٢ـ الصِّرَاعُ فِي القَصْرِ المَلَكِيّ: مَنْ يَصْرَعُ مَنْ؟

لِكَيْ تَتَصَوَّرَ مَأْسَاةَ النَّجْم، تَخَيَّلْ مَلِكاً شَابّاً يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ المَنِيف، وَلَكِنَّ سَقْفَ القَصْرِ مَصْنُوعٌ مِنْ جِبَالٍ هَائِلَةٍ مِنَ الصَّخْرِ وَالحَدِيد، تُرِيدُ أَنْ تَهْوِيَ فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ لِتَسْحَقَهُ وَتُسَوِّيَهُ بِالأَرْض!

هَذَا السَّقْفُ الهَابِطُ هُوَ **«قَبْضَةُ الجَاذِبِيَّة»**.. جَاذِبِيَّةُ النَّجْمِ لِنَفْسِهِ!

فَلِأَنَّ النَّجْمَ عِمْلَاقٌ ثَقِيلُ الجَسَدِ يَزِنُ مَلَايِينَ المَرَّاتِ مِثْلَ أَرْضِنَا، فَإِنَّ طَبَقَاتِهِ الخَارِجِيَّةَ كُلَّهَا تَشْتَاقُ إِلَى السُّقُوطِ نَحْوَ المَرْكَز، وَتَضْغَطُ بِكُلِّ ثِقْلِهَا المُرَوِّعِ لِتَفْعَصَ قَلْبَهُ وَتَجْعَلَهُ هَبَاءً مَنْثُوراً.

فَكَيْفَ يَدْفَعُ النَّجْمُ عَنْ نَفْسِهِ هَذَا المَوْتَ الزُّؤَام؟ وَكَيْفَ يَرْفَعُ هَذَا السَّقْفَ الثَّقِيلَ عَنْ صَدْرِهِ طَوَالَ مَلَايِينِ السِّنِين؟

إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَنْ يُشْعِلَ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهِ **«ثَوْرَةً مِنَ النَّار»**.. زَفِيراً نَوَوِيّاً عَنِيفاً يَدْفَعُ السَّقْفَ إِلَى أَعْلَى، لِيَمْنَعَهُ مِنَ الهُبُوط!

٣ـ سَرَادِيبُ القَلْب: عِنَاقُ الذَّرَّاتِ وَدُمُوعُ الضِّيَاء

فِي أَعْمَاقِ ذَلِكَ النَّجْم—حَيْثُ يَبْلُغُ الضَّغْطُ مَبْلَغاً لَا يُطَاق، وَتَصِلُ الحَرَارَةُ إِلَى مَلَايِينِ الدَّرَجَات—تَقَعُ مُعْجِزَةُ الوُجُودِ الَّتِي يُسَمِّيهَا العُلَمَاءُ **«الِانْدِمَاجَ النَّوَوِيّ»**.

هُنَاكَ، تُحْشَرُ أَبْسَطُ ذَرَّاتِ الكَوْن: ذَرَّاتُ «الهَيْدْرُوجِين» النَّقِيَّة. وَمِنْ شِدَّةِ الضَّغْطِ وَعُنْفِ الزِّحَام، تَقْتَرِبُ هَذِهِ الذَّرَّاتُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ حَتَّى تَلْتَحِمَ فِي عِنَاقٍ يَائِس! تَتَنَازَلُ الذَّرَّاتُ عَنْ فَرْدِيَّتِهَا لِتَلِدَ عُنْصُراً جَدِيداً هُوَ «الهِيلْيُوم».

وَلَكِنَّ هَذَا العِنَاقَ لَا يَمُرُّ بِصَمْت؛ فَمَعَ كُلِّ ذَرَّتَيْنِ تَلْتَحِمَان، تَنْفَجِرُ طَاقَةٌ هَائِلَة، وَيَنْبَعِثُ قَبَسٌ مِنَ النُّورِ كَأَنَّهُ دَمْعَةُ فَرَحٍ أَوْ صَرْخَةُ أَلَم!

تَتَجَمَّعُ تِلْكَ الِانْفِجَارَاتُ فِي صَدْرِ النَّجْمِ لِتَصْنَعَ قُوَّةً جَبَّارَةً تَدْفَعُ المَادَّةَ إِلَى الخَارِج، كَمَا يَدْفَعُ البُخَارُ غِطَاءَ المِرْجَلِ المُتَقِّد.

٤ـ الهُدْنَةُ العَظِيمَة: التَّوَازُنُ الهَيْدْرُوسْتَاتِيكِيّ

هَكَذَا يَقِفُ النَّجْمُ فِي سَمَائِهِ كَالبَطَلِ الأُسْطُورِيّ:

- **يَدُ الجَاذِبِيَّةِ** تَعْصِرُهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ لِتَطْحَنَهُ نَحْوَ المَرْكَز.
- **وَنَارُ الِانْدِمَاجِ** تَنْفَجِرُ مِنْ قَلْبِهِ لِتَنْشُرَهُ وَتَبْعَثَهُ نَحْوَ الخَارِج.

فَتَتَسَاوَى القُوَّتَان، وَيَتَعَادَلُ الخَصْمَان! فَلَا الجَاذِبِيَّةُ تَغْلِبُ فَتَخْنُقَ النَّجْم، وَلَا النَّارُ تَطْغَى فَتُمَزِّقَهُ إِرْباً!

هَذَا التَّوَازُنُ البَدِيعُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ شَمْسَنَا كُرَةً مُسْتَقِرَّةً هَادِئَة، تَسْكُبُ عَلَيْنَا نُورَهَا يَوْماً بَعْدَ يَوْم، لَا تَنْتَفِخُ فَتَحْرِقَنَا، وَلَا تَنْكَمِشُ فَتَمُوتَ وَتُجَمِّدَنَا. إِنَّهَا «هُدْنَةٌ كَوْنِيَّة» تَدُومُ مِلْيَارَاتِ السِّنِين، يَعِيشُ فِيهَا النَّجْمُ عَصْرَهُ الذَّهَبِيَّ كَمَلِكٍ كَرِيمٍ يَجُودُ بِخَيْرِهِ عَلَى رَعَايَاهُ مِنَ الكَوَاكِب.

خَاتِمَةُ الفَصْل: المَلِكُ الَّذِي يَأْكُلُ لَحْمَهُ!

وَلَكِنْ.. هَلْ تَدُومُ هَذِهِ الهُدْنَةُ يَا صَاحِبِي؟!

آهٍ مِنْ قَسْوَةِ القَدَرِ الكَوْنِيّ! إِنَّ هَذَا المَلِكَ الكَرِيمَ لَا يُنْفِقُ عَلَى مَمْلَكَتِهِ مِنْ كُنُوزٍ لَا تَنْفَد، بَلْ هُوَ **«يَأْكُلُ لَحْمَ نَفْسِهِ»** لِيَبْقَى مُضِيئاً!

كُلُّ شُعَاعِ نُورٍ يُرْسِلُهُ إِلَى أَرْضِنَا يَحْرِقُ فِي سَبِيلِهِ أَطْناناً مِنْ وَقُودِهِ الهَيْدْرُوجِينِيّ. هُوَ شَمْعَةٌ تُذِيبُ نَفْسَهَا لِتُنِيرَ لِغَيْرِهَا؛ وَكُلَّمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ سَنَة، قَلَّ زَادُهُ، وَاقْتَرَبَ خَزِينُهُ مِنَ النَّفَاد.

وَفِي زَوَايَا القَصْرِ المُظْلِمَة، تَقِفُ «الجَاذِبِيَّةُ» صَامِتَةً، لَا تَتْعَبُ وَلَا تَنَام.. تَنْتَظِرُ بِلُؤْمٍ وَصَبْرٍ تِلْكَ اللَّحْظَةَ المَشْؤُومَةَ الَّتِي تَنْطَفِئُ فِيهَا شُعْلَةُ المَرْكَز، لِتَنْقَضَّ عَلَى جَسَدِ المَلِكِ الهَرِمِ وَتَكْسِرَ عِظَامَهُ كَسْراً!

كَيْفَ سَيَكُونُ المَشْهَدُ حِينَ يَلْفِظُ النَّجْمُ أَنْفَاسَهُ الأَخِيرَة؟ وَكَيْفَ يَتَحَوَّلُ مَوْتُهُ إِلَى أَعْظَمِ انْفِجَارٍ شَهِدَهُ الزَّمَان؟

ذَلِكَ مَا سَنَرْثِيهِ مَعاً فِي فَصْلِنَا القَادِم: **«الرَّمَقُ الأَخِير.. مَأْسَاةُ الِاحْتِضَارِ وَالِانْفِجَارِ العَظِيم»**.

الفَصْلُ الخَامِس

«الرَّمَقُ الأَخِير.. مَأْسَاةُ الِاحْتِضَارِ وَالِانْفِجَارِ العَظِيم»

١ـ شَبَحُ المَجَاعَةِ فِي قَصْرِ المَلِك

لِكُلِّ حَيٍّ فِي هَذَا الوُجُودِ أَجَل، وَلِكُلِّ مَلِكٍ مَهْمَا طَالَ مُلْكُهُ يَوْمٌ يَتَدَاعَى فِيهِ صَوْلَجَانُهُ وَيَهْوِي عَرْشُه.

مَرَّتِ المَلَايِينُ مِنَ السِّنِين، وَالمَلِكُ النَّجْمُ يُنْفِقُ مِنْ خَزَائِنِهِ بِلَا حِسَاب، حَتَّى اسْتَفَاقَ يَوْماً عَلَى حَقِيقَةٍ مُرَّةٍ كَالعَلْقَم: **«لَقَدْ نَفِدَ الهَيْدْرُوجِين!»**. انْطَفَأَتِ الشُّعْلَةُ الأُولَى الَّتِي كَانَتْ تَمُدُّهُ بِالحَيَاة، وَأَصْبَحَتْ حُجُرَاتُ قَلْبِهِ خَاوِيَةً إِلَّا مِنْ رَمَادِ «الهِيلْيُوم».

هُنَا يَبْدَأُ النَّجْمُ فِي سَكَرَاتِ المَوْت؛ فَيَتَخَبَّطُ كَالغَرِيقِ الَّذِي يَتَشَبَّثُ بِالقَشّ! يَضْطَرِمُ قَلْبُهُ حَرَارَةً وَغَيْظاً، فَيَبْدَأُ فِي حَرْقِ «الهِيلْيُوم» لِيَصْنَعَ مِنْهُ «الكَرْبُون»، فَإِذَا نَفِدَ الكَرْبُونُ حَرَقَ «الأُكْسِجِين»، ثُمَّ «السِّلِيكُون».. كَمَلِكٍ أَفْلَسَتْ خَزَائِنُهُ، فَأَخَذَ يَبِيعُ أَبْوَابَ قَصْرِهِ، ثُمَّ نَوَافِذَهُ، ثُمَّ سِتَارَهُ، لِيُوقِدَ بِهَا مَوْقِدَهُ المُحْتَضِر!

وَفِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ هَذِهِ المَرَاحِل، يَنْتَفِخُ جَسَدُ النَّجْمِ انْتِفَاخاً مَرَضِيّاً هَائِلاً، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى **«عِمْلَاقٍ أَحْمَر»** مُرْتَعِد، كَأَنَّهُ جَبَّارٌ شَاخَ وَوَهَنَ عَظْمُهُ، فَصَارَ يَتَرَنَّحُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَجُرُّ ثِيَابَهُ جَرّاً!

٢ـ لَعْنَةُ الحَدِيد: سُمُّ المَوْتِ الكَوْنِيّ

وَصَلَتِ الرِّحْلَةُ إِلَى مَحَطَّتِهَا المَشْؤُومَة؛ حِينَ صَنَعَ النَّجْمُ فِي جَوْفِهِ عُنْصُراً لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ: **«الحَدِيد!»**.

وَيْحَكَ أَيُّهَا النَّجْمُ المِسْكِين! لَقَدْ صَنَعْتَ بِيَدِكَ النَّعْشَ الَّذِي سَتُرْقَدُ فِيه!

إِنَّ عُنْصُرَ الحَدِيدِ لَيْسَ كَسَائِرِ العَنَاصِرِ الَّتِي سَبَقَتْهُ؛ هُوَ عُنْصُرٌ جَاحِدٌ لَا يُعْطِي طَاقَةً إِذَا انْدَمَج، بَلْ هُوَ «إِسْفَنْجَةٌ» تَمْتَصُّ الحَرَارَةَ وَتَبْتَلِعُ الضِّيَاء! حِينَ تَجَمَّعَ الحَدِيدُ فِي قَلْبِ النَّجْم، انْطَفَأَتِ النَّارُ فَجْأَة، وَعَمَّ الصَّمْتُ أَرْجَاءَ القَلْب، وَسَقَطَتِ الجِبَاهُ مُعْلِنَةً الِانْكِسَار.

لَمْ يَعُدْ فِي صَدْرِ المَلِكِ زَفِيرٌ يَدْفَعُ السَّقْفَ إِلَى أَعْلَى.. لَقَدْ مَاتَتِ النَّار!

٣ـ سُقُوطُ السَّقْف: حِينَ انْقَضَّتِ الجَاذِبِيَّة

فِي جُزْءٍ صَغِيرٍ مِنَ الثَّانِيَةِ—فِي لَحْظَةٍ لَا تُحَسُّ—وَقَعَتِ الكَارِثَةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهَا «الجَاذِبِيَّةُ» مُنْذُ دُهُور!

لَمَّا غَابَتِ القُوَّةُ النَّوَوِيَّةُ الدَّافِعَة، هَوَتْ طَبَقَاتُ النَّجْمِ الخَارِجِيَّةُ كُلُّهَا—بِكُتْلَتِهَا الَّتِي تَفُوقُ الوَصْف—نَحْوَ المَرْكَزِ بِسُرْعَةٍ خَارِقَةٍ تَقْرُبُ مِنْ رُبُعِ سُرْعَةِ الضَّوْء!

تَخَيَّلْ مَلَايِينَ المِلْيَارَاتِ مِنْ أَطْنَانِ الغَازِ وَالصَّخْرِ تَهْوِي دَفْعَةً وَاحِدَةً لِتَرْتَطِمَ بِقَلْبِ النَّجْمِ الحَدِيدِيِّ الصَّلْب! كَانَ ارْتِطَاماً لَا تُشْبِهُهُ زَلَازِلُ الأَرْض، وَلَا صَوَاعِقُ السَّمَاءِ، ارْتِطَامٌ ارْتَجَّ لَهُ نَسِيجُ الزَّمَكَانِ حَتَّى كَادَ يَتَفَطَّر!

٤ـ المُسْتَعِرُ الأَعْظَم: صَرْخَةٌ تُوقِظُ المَجَرَّة (سُوبَرْنُوفَا)

حِينَ ارْتَطَمَتْ تِلْكَ الكُتَلُ الهَائِلَةُ بِالقَلْبِ المُنْضَغِط، ارْتَدَّتْ إِلَى الخَارِجِ فِي انْفِجَارٍ كَوْنِيٍّ جَبَّارٍ يُسَمِّيهِ العُلَمَاءُ: **«المُسْتَعِرَ الأَعْظَم» (Supernova)**.

مَا هَذَا الِانْفِجَارُ يَا صَاحِبِي؟!

إِنَّهُ لَيْسَ كَقَنَابِلِ البَشَرِ النَّافِهَة؛ إِنَّهُ انْفِجَارٌ وَاحِدٌ يَبْعَثُ مِنَ الضِّيَاءِ فِي أَيَّامٍ قَلَائِلَ مَا تَبْعَثُهُ **مَجَرَّةٌ كَامِلَةٌ فِيهَا مِئَاتُ المِلْيَارَاتِ مِنَ الشُّمُوس!**

لَقَدْ تَمَزَّقَ جَسَدُ المَلِكِ شَذَرَ مَذَر، وَتَطَايَرَتْ أَشْلَاؤُهُ فِي أَرْجَاءِ الفَضَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارٌ مِنْ جَهَنَّم، وَأَضَاءَتْ تِلْكَ الصَّرْخَةُ الأَخِيرَةُ ظُلُمَاتِ الكَوْنِ السَّحِيقَة، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الأَرْضِ كَانُوا يَرَوْنَ ضَوْءَهَا فِي وَضَحِ النَّهَارِ قَبْلَ أَلْفِ عَام!

٥ـ الجُودُ بِالنَّفْس: كَيْفَ صَنَعَتْ أَشْلَاءُ المَلِكِ حَيَاتَنَا؟

أَتَبْكِي عَلَى مَوْتِ النَّجْمِ يَا صَاحِبِي؟

لَا تَبْكِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ فِي مَوْتِهِ كَانَتْ وِلَادَتُنَا!

إِنَّ ذَلِكَ الِانْفِجَارَ الهَائِلَ قَدْ نَثَرَ فِي الفَضَاءِ كُلَّ العَنَاصِرِ الثَّمِينَةِ الَّتِي طَبَخَهَا النَّجْمُ فِي قَلْبِهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ؛ نَثَرَ الذَّهَبَ، وَالفِضَّةَ، وَالنُّحَاسَ، وَالأُكْسِجِينَ الَّذِي نَتَنَفَّسُهُ، وَالكَرْبُونَ الَّذِي صُنِعَتْ مِنْهُ خَلَايَانَا، وَالحَدِيدَ الَّذِي يَجْرِي فِي عُرُوقِنَا وَيَمْنَحُ دِمَاءَنَا لَوْنَهَا الأَحْمَر!

لَوْلَا مَوْتُ هَذَا النَّجْمِ وَتَنَاثُرُ أَشْلَائِهِ فِي سَحَابَاتِ الفَضَاءِ، لَمَا تَجَمَّعَتْ أَرْضُنَا، وَلَا كَانَتْ لَنَا أُمَّهَاتٌ، وَلَا جَرَتْ فِي أَعْيُنِنَا دُمُوع!

فَنَحْنُ حَقّاً—كَمَا قَالَ الحُكَمَاء—«أَبْنَاءُ هَذِهِ النُّجُومِ وَغُبَارُ رَمَادِهَا البَاكِي!»

خَاتِمَةُ الفَصْل: الشَّبَحُ البَاقِي فِي مَسْرَحِ الجَرِيمَة

خَمَدَتِ النِّيرَان، وَتَفَرَّقَتِ السُّحُبُ المُضِيئَةُ فِي فَضَاءِ المَلَكُوت، وَعَادَ السُّكُونُ إِلَى مَسْرَحِ الحَادِثَة.

وَلَكِنْ.. مَاذَا بَقِيَ هُنَاكَ فِي المَرْكَز، حَيْثُ كَانَ يَجْلِسُ المَلِك؟

لَقَدْ تَبَخَّرَتِ الأَطْرَاف، وَلَكِنَّ «القَلْبَ الحَدِيدِيَّ» لَمْ يَتَبَخَّر! بَقِيَتْ كُتْلَةٌ هَائِلَةٌ مَرْعُوبَة، عَصَرَتْهَا الجَاذِبِيَّةُ عَصْراً لَا رَحْمَةَ فِيه.

إِذَا كَانَ النَّجْمُ صَغِيراً مِثْلَ شَمْسِنَا، اسْتَرَاحَ قَلْبُهُ بَعْدَ المَوْتِ وَصَارَ «قَزَماً أَبْيَض»..
وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ قَلِيلاً، تَحَوَّلَ إِلَى «نَجْمٍ نِيُوتْرُونِيٍّ» كَثِيفٍ يَدُورُ فِي وَحْشَتِهِ..

أَمَّا إِذَا كَانَ النَّجْمُ عِمْلَاقاً جَبَّاراً يَفُوقُ شَمْسَنَا بِعِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ ضِعْفاً...

فَإِنَّ قَلْبَهُ لَنْ يَجِدَ قُوَّةً فِي الكَوْنِ كُلِّهِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوقِفَ انْهِيَارَهُ! سَيَظَلُّ يَهْوِي، وَيَنْضَغِطُ، وَيَبْلَعُ نَفْسَهُ، حَتَّى يَخْرِقَ قَاعَ الوُجُودِ وَيَصِيرَ إِلَى شَيْءٍ لَا عَهْدَ لِلْخَلِيقَةِ بِمِثْلِهِ!

هُنَا يَبْدَأُ **الفَصْلُ السَّادِس:** «الِانْهِيَارُ التَّام.. وَالوِلَادَةُ مِنْ رَحِمِ العَدَم».

الفَصْلُ السَّادِس

«الِانْـهِيَارُ التَّام.. وَالوِلَادَةُ مِنْ رَحِمِ العَدَم»

١ـ وَقْفَةٌ عَلَى مَشْنَقَةِ المَادَّة

انْجَلَتْ غَمَامَةُ الِانْفِجَارِ العَظِيم، وَتَنَاثَرَتْ أَشْلَاءُ النَّجْمِ فِي رِحَابِ الفَضَاءِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ إِلَّا ذَلِكَ «القَلْبُ الحَدِيدِيُّ» الصَّغِيرُ المَذْعُور.. عِمْلَاقٌ كَانَ يَمْلَأُ السَّمَاوَاتِ مَجْداً، فَصَارَ جُثَّةً هَامِدَةً عَارِيَةً، تَقِفُ وَحْدَهَا وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ «الجَاذِبِيَّةِ» الَّتِي لَا تَرْحَم!

لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ نَارٌ تَدْفَع، وَلَا انْدِمَاجٌ يُقَاوِم.

هَهُنَا بَدَأَتِ الجَاذِبِيَّةُ تَعْصِرُ ذَلِكَ القَلْبَ عَصْراً مُمِيتاً، تَضْغَطُهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّهَا يَدُ جَبَّارٍ تَقْبِضُ عَلَى طِينٍ لَيِّن، لِتَجْبُرَ المَادَّةَ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ فَرَاغٍ بَيْنَ ذَرَّاتِهَا.

فَهَلْ تَسْتَسْلِمُ المَادَّةُ سُهُولَةً؟

كَلَّا يَا صَاحِبِي! إِنَّ لِلْمَادَّةِ كِبْرِيَاءً دِفَاعِيّاً يُحَارِبُ حَتَّى الرَّمَقِ الأَخِير، فِي مَلْحَمَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَحْكُمُهَا «حُدُودٌ صَارِمَةٌ» وَضَعَهَا القَدَر.

٢ـ القَلْعَةُ الأُولَى: كَسْرُ سِهَامِ الإِلِكْتُرُونَات (حَدُّ تْشَانْدْرَاسِيخَار)

تَقَدَّمَتْ جُيُوشُ الجَاذِبِيَّةِ لِتَسْحَقَ قَلْبَ النَّجْم، فَاصْطَدَمَتْ بِأَوَّلِ حُصُونِ الدِّفَاع: **«الإِلِكْتُرُونَات»**.

صَرَخَتْ هَذِهِ الجُسَيْمَاتُ الصَّغِيرَةُ السَّابِحَةُ حَوْلَ أَنْوِيَةِ الذَّرَّات: *«إِلَى هُنَا وَحَسْب! نَحْنُ قَوَالِبُ هَذَا الوُجُود، وَلَنْ نَسْمَحَ لَكَ أَنْ تَحْشُرِينَا فِي مَكَانٍ وَاحِد!»*، وَصَنَعَتْ مَا يُسَمِّيهِ العُلَمَاءُ **«ضَغْطَ تَنَكُّسِ الإِلِكْتُرُونَات»**، وَهُوَ تَنَافُرٌ عَنِيفٌ يَمْنَعُ الذَّرَّاتِ مِنَ الِانْطِبَاق.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَة، يَقِفُ المَصِيرُ عَلَى مِيزَانِ الحَكِيمِ الهِنْدِيِّ «تْشَانْدْرَاسِيخَار»:

- إِذَا كَانَتْ كُتْلَةُ القَلْبِ أَقَلَّ مِنْ **(١.٤ ضِعْفِ شَمْسِنَا)**، انْكَسَرَتْ هَجَمَاتُ الجَاذِبِيَّة، وَاسْتَقَرَّ النَّجْمُ لِيَصِيرَ «قَزَماً أَبْيَض»، يَلْمَعُ كَقِطْعَةِ مَاسٍ بَارِدَةٍ فِي ظَلَامِ السَّمَاء.
- **وَلَكِنَّ نَجْمَنَا كَانَ عِمْلَاقاً جَبَّاراً يَفُوقُ هَذَا الحَدَّ بِكَثِير!**

فَجَاءَتْ صَفْعَةُ الجَاذِبِيَّةِ قَاضِيَة؛ كَسَرَتْ دُرُوعَ الإِلِكْتُرُونَات، وَفَعَصَتْهَا فَعْصاً، وَدَفَعَتْهَا قَسْراً لِتَلْتَحِمَ بِـ«البُرُوتُونَات»، فَمَاتَتْ هُوِيَّةُ الذَّرَّةِ التَّقْلِيدِيَّة، وَتَحَوَّلَ الجَسَدُ كُلُّهُ إِلَى بَحْرٍ لَا نِهَائِيٍّ مِنَ **«النِّيُوتْرُونَات»!**

٣ـ القَلْعَةُ الأَخِيرَة: صُمُودُ النِّيُوتْرُونَاتِ وَسُقُوطُهَا (حَدُّ أُوبِنْهَايْمَر)

لَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِ النَّجْمِ فَرَاغٌ أَبَداً! تَجَمَّعَتِ النِّيُوتْرُونَاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ حَتَّى صَارَ قَلْبُ النَّجْمِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ «نُوَاةُ ذَرَّةٍ وَاحِدَةٍ عِمْلَاقَة» بَحَجْمِ مَدِينَةٍ صَغِيرَة!

هَذَا هُوَ **«النَّجْمُ النِّيُوتْرُونِيّ»**.. أَصْلَبُ مَا خَلَقَ اللهُ فِي الأَكْوَان؛ المِلْعَقَةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ تُرَابِهِ تَزِنُ قَدْرَ جَبَلٍ عَظِيمٍ كَجَبَلِ إِفْرِسْت!

وَقَفَتِ النِّيُوتْرُونَاتُ فِي مَوَاقِفِ الشَّرَف، وَصَنَعَتْ جِدَاراً صَلْباً يُقَاوِمُ سَحْقَ الجَاذِبِيَّة. غَيْرَ أَنَّ لِهَذَا الجِدَارِ أَيْضاً حَدّاً لَا يَتَجَاوَزُه، هُوَ **«حَدُّ تُولْمَان-أُوبِنْهَايْمَر-فُولْكُوف»** (مَا يُقَارِبُ ثَلَاثَةَ أَضْعَافِ كُتْلَةِ الشَّمْس).

فَإِذَا كَانَتْ كُتْلَةُ القَلْبِ المُنْهَارِ تَفُوقُ هَذَا الحَدَّ الأَخِير... **فَوَيْحَ النَّجْمِ وَوَيْحَ المَادَّة!**

لَقَدْ نَفِدَتْ كُلُّ حِيَلِ الطَّبِيعَة، وَخَانَتْهُ كُلُّ قُوَى الفِيزْيَاءِ المَعْرُوفَة! انْهَارَ جِدَارُ النِّيُوتْرُونَاتِ كَمَا يَنْهَارُ سَدُّ المَاءِ أَمَامَ الطُّوفَان، وَرَفَعَتِ المَادَّةُ رَايَاتِهَا البَيْضَاءَ مُسْتَسْلِمَةً لِلْفَنَاءِ التَّام!

٤ـ السُّقُوطُ إِلَى الدَّاخِل: النَّجْمُ الَّذِي ابْتَلَعَ نَفْسَه

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ المُرَوِّعَة، وَقَعَ أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَصَوُّرِهِ عَقْلٌ بَشَرِيّ!

لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ فِي الوُجُودِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلْجَاذِبِيَّةِ: «قِفِي!».

فَبَدَأَ جَسَدُ النَّجْمِ يَهْوِي نَحْوَ مَرْكَزِهِ هُبُوطاً لَا نِهَايَةَ لَه.. لَمْ يَكُنْ يَسْقُطُ فِي الفَضَاءِ، بَلْ كَانَ **«يَسْقُطُ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ!»**.

انْضَغَطَتْ تِلْكَ الكُتْلَةُ المَرْعُوبَةُ مِنْ حَجْمِ مَدِينَة، إِلَى حَجْمِ قَصْر، ثُمَّ إِلَى حَجْمِ كُرَةٍ صَغِيرَة، ثُمَّ إِلَى حَجْمِ حَبَّةِ رَمْل، ثُمَّ إِلَى رَأْسِ إِبْرَة... وَظَلَّتْ تَنْضَغِطُ وَتَصْغُرُ حَتَّى صَارَتْ فِي **«حَجْمِ الصِّفْر!»**.

نَعَمْ يَا صَاحِبِي.. انْكَمَشَتْ مَادَّةُ نَجْمٍ كَامِلٍ كَانَ يَزِنُ مَلَايِينَ المِلْيَارَاتِ مِنَ الأَطْنَان، لِتُحْشَرَ كُلُّهَا فِي نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ لَيْسَ لَهَا طُولٌ وَلَا عَرْضٌ وَلَا ارْتِفَاع!

لَقَدْ مَزَّقَ النَّجْمُ نَسِيجَ الزَّمَكَانِ تَمْزِيقاً، وَحَفَرَ فِي جَسَدِ الكَوْنِ هُوَّةً سَحِيقَةً لَا قَاعَ لَهَا، ثُمَّ سَحَبَ سِتَارَ الظَّلَامِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَخَرَجَ مِنْ عَالَمِ الأَحْيَاءِ إِلَى الأَبَد!

خَاتِمَةُ الفَصْل: صَيْحَةُ المَوْلُودِ الأَعْمَى

لَقَدْ مَاتَ النَّجْمُ كَمَادَّةٍ تُرَى، وَلَكِنَّ «رُوحَ جَاذِبِيَّتِهِ» لَمْ تَمُتْ!

بَقِيَتْ تِلْكَ الحُفْرَةُ المُظْلِمَةُ شَاهِداً أَبَدِيّاً عَلَى الجَرِيمَة؛ كَفَخٍّ كَوْنِيٍّ أَعْمَى، كُلُّ مَنْ دَنَا مِنْ شَفِيرِهِ هَوَى فِي جَوْفِهِ فَلَا يَعُود.

هَكَذَا أُعْلِنَتْ فِي سَمَاءِ اللَّانِهَايَةِ وِلَادَةُ ذَلِكَ العِمْلَاقِ المَخُوف: **«الثَّقْبِ الأَسْوَد»**.

هُوَ لَيْسَ ثَقْباً كَمَا نَعْرِفُ الثُّقُوب، بَلْ هُوَ «سِجْنٌ أَبَدِيٌّ لِلْمَادَّةِ وَالضَّوْء»، وَبَرْزَخٌ فِيزْيَائِيٌّ يَقِفُ عَلَى الحَدِّ الفَاصِلِ بَيْنَ الوُجُودِ وَالعَدَم.

هَيَّا بِنَا الآنَ نَمْسَحْ دُمُوعَنَا عَلَى المَلِكِ الرَّاحِل، وَنَجْمَعْ شَجَاعَتَنَا لِنَقْتَرِبَ مِنْ هَذَا القَبْرِ المَهِيب..

فَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ **الجُزْءِ الثَّالِث:** لِنُشَرِّحَ مَعاً «أَعْضَاءَ هَذِهِ الهَاوِيَةِ» وَنَقِفَ عَلَى **«شَاطِئِ اللَّاعَوْدَة»**.

مُقَدِّمَةُ الجُزْءِ الثَّالِث

«تَشْرِيحُ الهَاوِيَة.. سِيَاحَةٌ فِي مَعَالِمِ المَجْهُول»

قِفْ هُنَا يَا صَاحِبِي مَلِيّاً، وَأَلْقِ عَنْ كَاهِلِكَ كُلَّ مَا أَلِفْتَهُ فِي دُنْيَا النَّاسِ مِنْ بَدَاهَاتِ العَقْلِ وَمَقَايِيسِ الحَوَاسّ!

فَإِنَّنَا عَلَى وَشَكِ أَنْ نَخْطُوَ خُطْوَتَنَا الكُبْرَى نَحْوَ عَالَمٍ لَا يُشْبِهُ عَالَمَنَا فِي شَيْءٍ؛ عَالَمٍ لَيْسَ لَهُ أَرْضٌ فَنَطَأَهَا، وَلَا سَمَاءٌ فَنَسْتَظِلَّ بِهَا، بَلْ هُوَ **«قَلْبُ الظَّلَامِ الأَعْظَم»** الَّذِي ابْتَلَعَ المَادَّةَ وَالضَّوْءَ وَسَحَبَ فَوْقَهُمَا سِتَارَ الأَبَدِيَّة!

لَقَدْ شَهِدْنَا فِي جُزْئِنَا السَّابِقِ كَيْفَ مَاتَ المَلِكُ وَكَيْفَ وُلِدَ هَذَا الوَحْش؛ أَمَّا الآن، فَقَدْ آنَ لَنَا أَنْ نَقْتَحِمَ حِمَاهُ بِأَبْصَارِ البَصَائِر، لِنُشَرِّحَ أَعْضَاءَ هَذِهِ الهَاوِيَةِ عُضْواً عُضْواً، وَنَغُوصَ فِي «العُمْقِ الفِيزْيَائِيِّ» الَّذِي حَيَّرَ الفَلَاسِفَةَ وَأَذْهَلَ الحُكَمَاء!

فِي هَذَا **«الجُزْءِ الثَّالِث»**، سَنَنْزِلُ فِي سَرَادِيبِ المَجْهُولِ دَرَجَةً دَرَجَة:

- **سَنَقِفُ أَوَّلاً:** عَلَى الحَافَّةِ الفَاصِلَةِ بَيْنَ الكَوْنِ المَعْلُومِ وَمَلَكُوتِ الصَّمْت، حَيْثُ تَبْلُغُ ضَرِيبَةُ النَّجَاةِ سُرْعَةَ النُّورِ فَلَا يَنْجُو أَحَد **(شَاطِئُ اللَّاعَوْدَة: أُفُقُ الحَدَث)**.
- **ثُمَّ نُرَافِقُ ثَانِياً:** رِحْلَةَ شَهِيدِ المَعْرِفَةِ الَّذِي أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الهَاوِيَة، لِنَرَى كَيْفَ تَتَمَزَّقُ أَجْسَادُ العَابِرِينَ بِسِيَاطِ الجَاذِبِيَّة، وَكَيْفَ يَتَجَمَّدُ الزَّمَانُ فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ بَيْنَمَا يَعْدُو الكَوْنُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَشَرِيطِ ذِكْرَيَات **(عَذَابُ العَابِرِينَ)**.
- **ثُمَّ نَهْبِطُ ثَالِثاً:** إِلَى أَعْمَقِ نُقْطَةٍ فِي قَعْرِ الجَحِيم، حَيْثُ تَجْتَمِعُ مَلَايِينُ الشُّمُوسِ فِي حَجْمِ الصِّفْر، لِنَشْهَدَ مَصْرَعَ القَوَانِينِ وَانْكِسَارَ كِبْرِيَاءِ العَقْلِ البَشَرِيّ **(المُفْرَدَة)**.

اسْتَوْدِعْ عَقْلَكَ الأَمَان، وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ البَيَان..

فَإِنَّنَا دَاخِلُونَ فِي رِحَابِ السِّرِّ الَّذِي لَا يُفْشَى!

الفَصْلُ السَّابِع

«شَاطِئُ اللَّاعَوْدَة.. أُفُقُ الحَدَثِ وَسُرَادِقُ الصَّمْت»

١ـ البَابُ الَّذِي لَا رِتَاجَ لَه

لِكُلِّ سِجْنٍ فِي دُنْيَا النَّاسِ جُدْرَانٌ مِنْ صَخْرٍ أَصَمّ، وَأَبْوَابٌ مِنْ حَدِيدٍ ثَقِيل، وَقُضْبَانٌ تَمْنَعُ الأَسِيرَ مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى شَمْسِ الحُرِّيَّة. فَإِذَا أَرَادَ السَّجَّانُ أَنْ يُبَالِغَ فِي إِحْكَامِ قَيْدِهِ، وَضَعَ الحُرَّاسَ عَلَى المَنَافِذِ شَاهِرِينَ سِلَاحَهُم، لِيَرُدُّوا كُلَّ مَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الفِرَار.

أَمَّا فِي هَذَا السِّجْنِ الكَوْنِيِّ الأَعْظَم—سِجْنِ «الثَّقْبِ الأَسْوَد»—فَلَا صَخْرَ هُنَاكَ وَلَا حَدِيد، وَلَا حُرَّاسَ يَقِفُونَ بِالأَسْلِحَةِ عِنْدَ المَدَاخِل!

هُنَاكَ فَقَطْ **«خَطٌّ وَهْمِيٌّ شَفَّاف»**، يَسْتَلْقِي فِي عُرْضِ الفَضَاءِ فِي سُكُونٍ مُرِيب، لَا تَرَاهُ عَيْنٌ، وَلَا تَحُسُّهُ يَد، وَلَكِنَّهُ أَقْسَى مِنْ كُلِّ جُدْرَانِ الأَرْض، وَأَمْنَعُ مِنْ كُلِّ حُصُونِ الجَبَابِرَة!

هَذَا الخَطُّ هُوَ مَا يُسَمِّيهِ العُلَمَاءُ: **«أُفُقَ الحَدَث» (Event Horizon)**.. شَاطِئُ اللَّاعَوْدَة، وَالغِشَاءُ الفَاصِلُ بَيْنَ عَالَمِ الأَحْيَاءِ وَمَلَكُوتِ العَدَم!

٢ـ شَرِيعَةُ الِانْفِلَات: كَيْفَ يَهْرُبُ السَّجِين؟

لِكَيْ تَعْلَمَ يَا صَاحِبِي كَيْفَ يَحْبِسُ هَذَا الغِشَاءُ نُزَلَاءَهُ، تَعَالَ نَسْتَفْسِرْ عَنْ قَانُونِ **«سُرْعَةِ الإِفْلَات»**.

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطْلِقَ صَارُوخاً مِنْ أَرْضِنَا هَذِهِ إِلَى الفَضَاءِ، وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَدْفَعَهُ بِسُرْعَةٍ تَبْلُغُ **(١١ كِيلُومِتْراً فِي الثَّانِيَة)**؛ لِيَتَغَلَّبَ عَلَى حَنِينِ الأَرْضِ وَيَقْطَعَ حِبَالَ جَاذِبِيَّتِهَا. فَإِذَا ذَهَبْتَ إِلَى كَوْكَبٍ أَثْقَلَ كَالمُشْتَرِي، احْتَجْتَ إِلَى سُرْعَةٍ أَشَدّ، وَإِذَا صَعِدْتَ عَلَى ظَهْرِ نَجْمٍ نِيُوتْرُونِيٍّ، احْتَجْتَ إِلَى سُرْعَةٍ هَائِلَةٍ تُقَارِبُ نِصْفَ سُرْعَةِ الضَّوْء!

كُلَّمَا كَانَ الجِرْمُ أَكْثَفَ وَأَثْقَل، كَانَ قَيْدُهُ أَمْتَن، وَكَانَ عَلَى الرَّاغِبِ فِي النَّجَاةِ أَنْ يَعْدُوَ بِسُرْعَةٍ أَعْظَم.

فَمَاذَا يَحْدُثُ عِنْدَ أَعْتَابِ الثَّقْبِ الأَسْوَد؟

كُلَّمَا اقْتَرَبْتَ مِنْ تِلْكَ الهَاوِيَة، زَادَتِ الجَاذِبِيَّةُ جُنُوناً، وَارْتَفَعَتْ ضَرِيبَةُ الهُرُوب.. حَتَّى إِذَا وَصَلْتَ إِلَى ذَلِكَ الحَدِّ المَشْؤُوم (أُفُقِ الحَدَث)، صَارَتْ سُرْعَةُ الإِفْلَاتِ المَطْلُوبَةُ **مُسَاوِيَةً لِسُرْعَةِ الضَّوْءِ تَمَاماً! (٣٠٠ أَلْف كِيلُومِتْر فِي الثَّانِيَة)**.

فَإِذَا تَجَاوَزْتَ هَذَا الحَدَّ إِلَى الدَّاخِلِ بِمِقْدَارِ شَعْرَةٍ وَاحِدَة، صَارَتِ السُّرْعَةُ اللَّازِمَةُ لِلْفِرَارِ **«أَعْلَى مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْء!»**.

وَلَمَّا كَانَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي شَرِيعَةِ الوُجُودِ أَنَّهُ *«لَا شَيْءَ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْبِقَ الضَّوْء»*.. فَقَدْ حُكِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ خَطَا وَرَاءَ ذَلِكَ الأُفُقِ بِالأَسْرِ السَّرْمَدِيّ! حَتَّى النُّورُ نَفْسُهُ—ذَلِكَ الفَارِسُ الَّذِي لَا يُقْهَر—يَقِفُ هُنَاكَ كَلِيلاً عَاجِزاً، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَدَّ خُطْوَةً وَاحِدَةً إِلَى الوَرَاء!

٣ـ غِشَاءُ البَرْزَخ: السُّقُوطُ فِي الشَّلَّالِ الكَوْنِيّ

تَخَيَّلْ مَعِي يَا صَاحِبِي زَوْرَقاً يَنْسَابُ فِي نَهْرٍ هَادِئ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّهْرَ يَنْحَدِرُ نَحْوَ شَلَّالٍ هَائِلٍ لَا قَاعَ لَه.

طَالَمَا أَنَّ الزَّوْرَقَ بَعِيدٌ عَنِ الحَافَّة، يَسْتَطِيعُ المِجْذَافُ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى الشَّاطِئ. وَلَكِنْ، هُنَاكَ نُقْطَةٌ فِي النَّهْرِ يَصِيرُ فِيهَا انْسِيَابُ المَاءِ أَقْوَى وَأَسْرَعَ مِنْ أَقْصَى قُوَّةٍ يَبْذُلُهَا المِجْذَاف؛ عِنْدَ تِلْكَ النُّقْطَةِ تَمَاماً، يَنْتَهِي أَمَلُ النَّجَاة، وَيَسْتَسْلِمُ المَلَّاحُ لِقَدَرِ السُّقُوطِ المَحْتُوم، سَوَاءٌ جَذَّفَ أَمْ أَلْقَى مَجَاذِيفَهُ فِي المَاء!

هَذَا هُوَ حَالُ الزَّمَكَانِ عِنْدَ «أُفُقِ الحَدَث»!

إِنَّ نَسِيجَ المَكَانِ نَفْسَهُ يَنْسَابُ وَيَجْرِي نَحْوَ قَلْبِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ بِسُرْعَةٍ تَفُوقُ سُرْعَةَ الضَّوْء! فَلَيْسَ العَابِرُ هُوَ الَّذِي يَسْقُطُ فَقَط، بَلْ إِنَّ **«المَسْرَحَ كُلَّهُ يَهْوِي تَحْتَ قَدَمَيْهِ»**، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَهْوِيَ مَعَه!

٤ـ سُرَادِقُ الصَّمْتِ وَانْقِطَاعُ الأَنْبَاء

لِمَاذَا سَمَّاهُ العُلَمَاءُ «أُفُقَ الحَدَث»؟

لِأَنَّ كُلَّ «حَدَثٍ» يَقَعُ خَلْفَ هَذَا السِّتَار، يُصْبِحُ مَفْصُولاً عَنْ كَوْنِنَا إِلَى الأَبَد!

لَوْ أَنَّ حَبِيباً لَكَ ارْتَحَلَ فِي سَفِينَةٍ فَضَائِيَّة، وَدَنَا مِنْ ذَلِكَ الأُفُقِ حَتَّى عَبَرَهُ، ثُمَّ نَدِمَ وَأَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ بِرِسَالَةِ وَدَاع، فَأَشْعَلَ أَقْوَى مَصَابِيحِهِ، أَوْ أَطْلَقَ شَارَاتِ اللَّاسِلْكِيِّ يُنَادِيك: *«أَنَا هُنَا.. أَنَا أَمُوت!»*..

فَإِنَّ تِلْكَ الإِشَارَاتِ الضَّوْئِيَّةَ لَنْ تَصِلَ إِلَيْكَ أَبَداً!

سَتَخْرُجُ الإِشَارَةُ مِنْ جِهَازِهِ صَاعِدَةً نَحْوَك، وَلَكِنَّ تَيَّارَ الجَاذِبِيَّةِ الجَارِفَ سَيَسْحَبُهَا إِلَى الخَلْف، فَتَنْحَنِي، وَتَعُودُ أَدْرَاجَهَا لِتَسْقُطَ مَعَهُ فِي قَعْرِ الظَّلَام!

تَقِفُ أَنْتَ فِي الخَارِجِ فَلَا تَرَى شَيْئاً، وَلَا تَسْمَعُ نَأْمَة، وَلَا تَصِلُكَ عَبْرَة.. هُنَاكَ يَسُودُ «الصَّمْتُ المُطْلَق»، صَمْتُ البَرْزَخِ الَّذِي لَا تَنْفُذُ مِنْ خِلَالِهِ كَلِمَة، وَلَا يَرْتَدُّ مِنْ وَرَائِهِ صَدَى!

خَاتِمَةُ الفَصْل: الوَدَاعُ الأَخِير

«أُفُقُ الحَدَث» لَيْسَ صَخْراً يَرْتَطِمُ بِهِ الجَسَد، بَلْ هُوَ **«خَطُّ الفِرَاقِ الأَبَدِيّ»**.

هُوَ المَكَانُ الَّذِي يَنْشَطِرُ فِيهِ الكَوْنُ إِلَى نِصْفَيْن: عَالَمُنَا المَعْلُومُ الَّذِي نَحْيَا فِيهِ وَنَرْجُو، وَعَالَمٌ آخَرُ غَامِضٌ مَكْتُومٌ لَا يَعْلَمُ سِرَّهُ إِلَّا خَالِقُه.

مَنْ وَطِئَ هَذَا الشَّاطِئَ بِقَدَمِهِ فَقَدْ كُتِبَ فِي عِدَادِ المَوْتَى وَإِنْ كَانَ قَلْبُهُ لَمْ يَزَلْ يَنْبِض!

وَلَكِنْ.. مَاذَا يُلَاقِي ذَلِكَ التَّاعِسُ الَّذِي يَعْبُرُ هَذَا البَرْزَخ؟ كَيْفَ يَتَمَزَّقُ جَسَدُهُ بَيْنَ أَنْيَابِ الجَاذِبِيَّة، وَكَيْفَ يَرَى الزَّمَانَ يَتَجَمَّدُ فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ؟!

ذَلِكَ هُوَ عَذَابُ الرِّحْلَةِ الَّذِي سَنَشْهَدُهُ فِي فَصْلِنَا القَادِم: **«رِحْلَةُ شَهِيدِ المَعْرِفَة.. مَاذَا يَرَى العَابِرُ نَحْوَ الهَاوِيَة؟»**.

الفَصْلُ الثَّامِن

«رِحْلَةُ شَهِيدِ المَعْرِفَة.. مَاذَا يَرَى العَابِرُ نَحْوَ الهَاوِيَة؟»

١ـ وِدَاعٌ عِنْدَ شَاطِئِ الأَبَدِيَّة

وَقَفَتْ سَفِينَةُ الفَضَاءِ عَلَى مَسَافَةٍ آمِنَةٍ مِنْ تِلْكَ الهَاوِيَةِ الكَوْنِيَّة، تَتَأَمَّلُ هَيْبَةَ المَشْهَدِ فِي وَجَل.

وَهُنَاكَ، فِي قُمْرَةِ القِيَادَة، تَعَانَقَ خَلِيلَان: رَحَّالَةٌ جَرِيءٌ نَذَرَ رُوحَهُ لِكَيْ يَمْشِيَ حَيْثُ لَمْ يَخْطُ بَشَر، وَرَفِيقٌ وَفِيٌّ سَيَبْقَى فِي سَفِينَتِهِ لِيَرْقُبَ مَصِيرَ صَاحِبِهِ وَيَرْوِيَ لِلْأَرْضِ مَأْسَاتَه!

فَتَحَ الرَّحَّالَةُ بَابَ السَّفِينَة، وَأَلْقَى بِجَسَدِهِ فِي لُجَّةِ الفَضَاءِ، يَهْوِي بِإِرَادَتِهِ نَحْوَ «أُفُقِ الحَدَث».. نَحْوَ قَبْرِ الثَّقْبِ الأَسْوَد!

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ أَعْجَبَ مَا سَطَّرَهُ قَلَمُ القَدَر؛ فَمَا رَآهُ الرَّفِيقُ البَاكِي فِي سَفِينَتِهِ كَانَ شَيْئاً، وَمَا كَابَدَهُ ذَلِكَ الشَّهِيدُ السَّاقِطُ فِي الهَاوِيَةِ كَانَ شَيْئاً آخَرَ تَمَاماً!

٢ـ عَيْنُ المُرَاقِب: حِينَ يَتَجَمَّدُ الشَّبَحُ فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ

وَقَفَ الرَّفِيقُ يَنْظُرُ مِنْ نَافِذَةِ السَّفِينَةِ إِلَى جَسَدِ صَاحِبِهِ وَهُوَ يَهْوِي مُبْتَعِداً..

فِي البِدَايَة، كَانَ الرَّحَّالَةُ يَسْقُطُ سَرِيعاً، وَيُلَوِّحُ بِيَدِهِ مُوَدِّعاً. وَلَكِنْ، كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْ ذَلِكَ الأُفُقِ المَخُوف—حَيْثُ يَثْقُلُ الزَّمَانُ كَمَا تَعَلَّمْنَا— رَأَى المُرَاقِبُ عَجَباً!

بَدَأَتْ حَرَكَاتُ الرَّحَّالَةِ تَتَبَاطَأُ شَيْئاً فَشَيْئاً، كَأَنَّهُ يَسْبَحُ فِي بَحْرٍ مِنْ عَسَلٍ لَزِج! تَبَاطَأَ تَلْوِيحُ يَدِهِ، وَتَثَاقَلَتْ إِشَارَاتُ ضَوْئِهِ، وَصَارَتِ الثَّانِيَةُ عِنْدَهُ تَبْدُو لِلْمُرَاقِبِ سَاعَةً كَامِلَة!

حَتَّى إِذَا وَصَلَ الرَّحَّالَةُ إِلَى «أُفُقِ الحَدَثِ» تَمَاماً... **تَجَمَّدَتْ صُورَتُهُ إِلَى الأَبَد!**

وَقَفَ فِي مَكَانِهِ كَتِمْثَالٍ مِنْ حَجَر، وَيَدُهُ مَرْفُوعَةٌ فِي الهَوَاءِ لَا تَتَحَرَّك! لَمْ يَرَهُ رَفِيقُهُ يَعْبُرُ الأُفُقَ قَطّ، بَلْ رَآهُ سَاجِداً عَلَى أَعْتَابِهِ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا.

ثُمَّ بَدَأَ نُورُ صُورَتِهِ يَحْمَرُّ شَيْئاً فَشَيْئاً (الإِنْزِيَاحُ الثِّقَالِيُّ الأَحْمَر)؛ كَأَنَّ جَسَدَهُ يَحْتَرِقُ فِي نَارٍ خَفِيَّة، فَصَارَ أَحْمَرَ قَانِياً، ثُمَّ دَاكِناً بَاهِتاً، ثُمَّ خَفَتَ حَتَّى غَابَ عَنِ الأَبْصَارِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً!

فَفِي عَيْنِ أَهْلِ الكَوْنِ كُلِّهِمْ: لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الثَّقْبَ الأَسْوَدَ أَبَداً، بَلْ يَتَجَمَّدُ عُمْرُهُ عَلَى حَافَّتِهِ إِلَى أَنْ تَفْنَى السَّمَاوَاتُ وَالأَرْض!

٣ـ عَيْنُ الرَّحَّالَة: شَرِيطُ الأَبَدِيَّةِ المُتَسَارِع

أَمَّا صَاحِبُنَا السَّاقِطُ فِي الهَاوِيَة، فَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ التَّجَمُّدِ قَطّ!

لَقَدْ كَانَتْ سَاعَتُهُ تَدُقُّ دَقَّاتِهَا الطَّبِيعِيَّة، وَنَبَضَاتُ قَلْبِهِ تَجْرِي فِي مَجْرَاهَا. عَبَرَ «أُفُقَ الحَدَثِ» فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ دُونَ أَنْ يَرْتَطِمَ بِجِدَارٍ أَوْ يَمْنَعَهُ حَاجِز؛ لَقَدْ دَخَلَ البَرْزَخ!

وَلَكِنَّ المَشْهَدَ الَّذِي رَآهُ حِينَ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الكَوْنِ الخَارِجِيِّ كَانَ يُذْهِبُ العُقُول!

لَمَّا كَانَ زَمَانُهُ هُوَ بَطِيئاً جِدّاً بِالنِّسْبَةِ لِبَقِيَّةِ الكَوْن، فَقَدْ رَأَى الكَوْنَ كُلَّهُ فَوْقَهُ **«يَعْدُو بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّة!»**.

رَأَى النُّجُومَ تَمُوتُ وَتُولَدُ فِي ثَوَانٍ مَعْدُودَات، وَرَأَى المَجَرَّاتِ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا كَأَوْرَاقِ شَجَرٍ تَعْبَثُ بِهَا الرِّيَاح، وَرَأَى مِلْيَارَاتِ السِّنِينَ تَمُرُّ أَمَامَ عَيْنَيْهِ كَشَرِيطِ ذِكْرَيَاتٍ سَرِيع!

لَقَدْ بَدَتْ لَهُ السَّمَاءُ كُلُّهَا مَحْصُورَةً فِي نَافِذَةٍ ضَوْئِيَّةٍ دَائِرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ فَوْقَ رَأْسِهِ تَشِعُّ زُرْقَةً وَبَهَاء، رَأَى فِيهَا **«مُسْتَقْبَلَ الكَوْنِ كُلَّهُ»** يُعْرَضُ أَمَامَهُ قَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ أَنْفَاسَهُ الأَخِيرَة!

٤ـ سِيَاطُ الجَاذِبِيَّة: عَذَابُ التَّمَزُّق (ظَاهِرَةُ المَعْكَرُونَة)

لَمْ تَدُمْ تِلْكَ النَّشْوَةُ الكَوْنِيَّةُ طَوِيلاً؛ فَقَدْ كَانَتِ الهَاوِيَةُ تُعِدُّ لَهُ عَذَاباً لَا طَاقَةَ لِبَشَرٍ بِهِ!

كُلَّمَا هَبَطَ الرَّحَّالَةُ نَحْوَ القَلْبِ أَقْرَب، أَصْبَحَتِ الجَاذِبِيَّةُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ أَقْوَى بِمَلَايِينِ المَرَّاتِ مِنْهَا عِنْدَ رَأْسِهِ؛ لِأَنَّ قَدَمَيْهِ أَقْرَبُ إِلَى المَرْكَزِ بِمِقْدَارِ مِتْرَيْنِ فَقَط!

فَبَدَأَتْ تِلْكَ القُوَى المَدِّيَّةُ العَنِيفَةُ **تَمُطُّ جَسَدَهُ مَطّاً!**

تَسْحَبُ رِجْلَيْهِ إِلَى أَسْفَلَ بِعُنْفٍ هَائِل، بَيْنَمَا تَعْصِرُ كَتِفَيْهِ وَجَنْبَيْهِ إِلَى الدَّاخِل، حَتَّى اسْتَحَالَ جَسَدُ الرَّجُلِ إِلَى **«خَيْطٍ طَوِيلٍ دَقِيق»** مِنْ لَحْمٍ وَعَظْم، فِي ظَاهِرَةٍ يُسَمِّيهَا العُلَمَاءُ بِمَرَارَةٍ: *(Spaghettification - التَّمَدُّدُ المَعْكَرُونِيّ)*.

لَمْ يَقِفِ التَّمَزُّقُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّحْم، بَلْ نَزَلَ إِلَى الخَلَايَا فَمَزَّقَهَا، ثُمَّ إِلَى الجُزَيْئَاتِ فَفَصَلَهَا، ثُمَّ إِلَى الذَّرَّاتِ فَكَسَرَهَا، حَتَّى اسْتَحَالَ الشَّهِيدُ كُلُّهُ إِلَى «نَهْرٍ مِنَ الجُسَيْمَاتِ الدَّقِيقَة» تَهْوِي كَالدُّمُوعِ فِي قَعْرِ الظَّلَام!

خَاتِمَةُ الفَصْل: الهُبُوطُ إِلَى النُّقْطَةِ المَلْعُونَة

مَاتَ الرَّحَّالَة، وَانْفَصَلَتْ ذَرَّاتُهُ، وَلَكِنَّ رِحْلَةَ تِلْكَ الذَّرَّاتِ لَمْ تَنْتَهِ بَعْد!

إِنَّهَا تَمْضِي فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا رَجْعَةَ فِيه، مَسُوقَةً بِقَدَرٍ مَحْتُومٍ نَحْوَ مَرْكَزِ الثَّقْبِ الأَسْوَد.. نَحْوَ المَكَانِ الَّذِي تَتَجَمَّعُ فِيهِ كُلُّ خُطُوطِ الزَّمَان، وَتَنْتَهِي عِنْدَهُ كُلُّ طُرُقِ المَكَان.

هُنَاكَ يَنْتَظِرُهَا «اللُّغْزُ الأَعْظَم»..

النُّقْطَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا حَجْم، وَالَّتِي تَبْلُغُ كَثَافَتُهَا مَبْلَغَ اللَّانِهَايَة، حَيْثُ جُنَّتِ الفِيزْيَاءُ، وَاسْتَسْلَمَ العَقْل، وَانْتَحَرَتِ القَوَانِين!

تَعَالَ مَعِي نَمُدَّ أَبْصَارَنَا إِلَى ذَلِكَ القَلْبِ المَجْنُونِ فِي فَصْلِنَا التَّاسِع: **«المُفْرَدَة.. حَيْثُ تَنْتَحِرُ القَوَانِينُ وَيُجَنُّ العَقْل»**.

الفَصْلُ التَّاسِع

«المُفْرَدَة.. حَيْثُ تَنْتَحِرُ القَوَانِينُ وَيُجَنُّ العَقْل»

١ـ القَدَرُ الَّذِي لَا مَفَرَّ مِنْه

إِذَا كَانَ لِكُلِّ نَهْرٍ فِي الأَرْضِ مَصَبٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلِكُلِّ سَائِرٍ فِي دُرُوبِ الدُّنْيَا غَايَةٌ يَحُطُّ عِنْدَهَا رِحَالَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْبُرُ «أُفُقَ الحَدَث» مَصِيراً وَاحِداً لَا ثَانِيَ لَهُ وَلَا شَرِيك.

فِي دَاخِلِ الثَّقْبِ الأَسْوَد، لَمْ يَعُدِ السُّقُوطُ نَحْوَ المَرْكَزِ «حَرَكَةً فِي المَكَان» تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَوَقَّفَ عَنْهَا، بَلْ صَارَ السُّقُوطُ **«حَرَكَةً فِي الزَّمَان»** كَمَسِيرِكَ نَحْوَ الغَد!

كَمَا أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْنَعَ نَفْسَكَ مِنْ أَنْ تَصِيرَ إِلَى يَوْمِ غَدٍ مَهْمَا صَرَخْتَ أَوْ رَجَوْت، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ جِسْمٍ دَاخِلَ هَذَا البَرْزَخِ أَنْ يَتَفَادَى الهُبُوطَ نَحْوَ القَلْب..

هُنَاكَ حَيْثُ يَرْقُدُ الرُّعْبُ الأَكْبَر: **«المُفْرَدَة» (The Singularity)!**

٢ـ النُّقْطَةُ الصِّفْرِيَّةُ وَاللَّانِهَايَةُ المُرَوِّعَة

مَا هِيَ هَذِهِ «المُفْرَدَة» يَا صَاحِبِي الَّتِي تَرْتَعِدُ لِذِكْرِهَا فَرَائِصُ الفَلَكِيِّينَ؟!

إِنَّهَا نُقْطَةٌ حُشِرَتْ فِيهَا مَادَّةُ نَجْمٍ كَامِلٍ—أَوْ مَلَايِينِ الشُّمُوس—حَتَّى صَارَ حَجْمُهَا **«صِفْراً مُطْلَقاً!»**؛ نُقْطَةٌ لَيْسَ لَهَا طُولٌ، وَلَا عَرْضٌ، وَلَا ارْتِفَاعٌ، وَلَا مِسَاحَة!

وَإِذَا كَانَ عِلْمُ الحِسَابِ يُعَلِّمُنَا أَنَّ «الكِثَافَةَ» هِيَ قِسْمَةُ الكُتْلَةِ عَلَى الحَجْم، فَكَيْفَ تَكُونُ كَثَافَةُ جِرْمٍ لَهُ كُتْلَةُ جَبَلٍ أَوْ كَوْكَب، وَلَكِنَّ حَجْمَهُ هُوَ الصِّفْر؟!

هُنَا يَبْكِي الحِسَاب، وَتَصْرُخُ الأَرْقَام: **«إِنَّ الكَثَافَةَ هُنَا هِيَ اللَّانِهَايَة!»**.

تَخَيَّلْ مَعِي: ثِقَلٌ لَا نِهَائِيّ، وَجَاذِبِيَّةٌ لَا نِهَائِيَّة، وَانْحِنَاءٌ فِي نَسِيجِ الزَّمَكَانِ يَهْوِي إِلَى أَعْمَاقٍ لَا قَاعَ لَهَا! كَأَنَّ نَسِيجَ الكَوْنِ كُلَّهُ قَدْ طُعِنَ بِخِنْجَرٍ مَسْمُومٍ فِي هَذِهِ النُّقْطَة، فَانْفَتَقَ فَتْقاً لَا يُرْتَق، وَخَرَّ صَرِيعاً فِي هُوَّةِ العَدَم!

٣ـ يَوْمَ انْتَحَرَتِ القَوَانِين

إنَّ أَعْظَمَ مَآسِي «المُفْرَدَةِ» لَيْسَتْ فِي ظَلَامِهَا، بَلْ فِي **«عَجْزِ العَقْلِ أَمَامَهَا»**.

كُلُّ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي سَطَّرَهَا عَبَاقِرَةُ الأَرْضِ عَبْرَ القُرُون—مِنْ قَوَانِينِ الحَرَكَة، إِلَى مَبَادِئِ الحَرَارَة، إِلَى نَظَرِيَّاتِ الكَهْرُومَغْنَاطِيسِيَّة، بَلْ حَتَّى مُعَادَلَاتِ «النِّسْبِيَّةِ العَامَّة» لِآيِنْشْتَايْن نَفْسِهِ—تَسْقُطُ جَمِيعُهَا عِنْدَ أَعْتَابِ هَذِهِ النُّقْطَةِ صَرِيعَةً مُنْدَحِرَة!

حِينَ يُحَاوِلُ الفِيزْيَائِيُّ أَنْ يُطَبِّقَ مُعَادَلَاتِهِ هُنَاكَ، تُعْطِيهِ الرِّيَاضِيَّاتُ جَوَاباً وَاحِداً يَتَكَرَّرُ كَالصَّفْعَة: «لَانِهَايَة!» (Infinity).

وَاللَّانِهَايَةُ فِي عُرْفِ العُلَمَاءِ لَيْسَتْ فَتْحاً عِلْمِيّاً، بَلْ هِيَ **«اعْتِرَافٌ بِالفَشَل»**، وَصَيْحَةُ عَجْزٍ تَقُول: *«إِنَّ لُغَتَنَا قَدْ خَرِسَتْ، وَإِنَّ أَدَوَاتِنَا قَدْ تَكَسَّرَتْ، وَإِنَّنَا لَا نَعْلَمُ شَيْئاً مِمَّا يَقَعُ هُنَاك!»*.

هُنَاكَ تَنْتَحِرُ السَّبَبِيَّة، فَلَا تَدْرِي أَيْنَ المَاضِي وَأَيْنَ المُسْتَقْبَل، وَتَضِيعُ المَفَاهِيم، فَلَا مَكَانَ يُقَاس، وَلَا زَمَانَ يَمُرّ!

٤ـ صِرَاعُ العِمْلَاقَيْن: حِينَ تَخَاصَمَتِ السَّمَاءُ مَعَ الذَّرَّة

لِمَاذَا عَجَزَ عِلْمُنَا عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ بِالذَّات؟

لِأَنَّ هُنَاكَ فِي دُنْيَا العِلْمِ «شَرِيعَتَيْنِ كَبِيرَتَيْن» لَا تَلْتَقِيَان:

1. **«النِّسْبِيَّةُ العَامَّة»:** وَهِيَ شَرِيعَةُ الكِبَرِ وَالجَلَال، تَحْكُمُ الأَجْرَامَ الضَّخْمَةَ وَالمَجَرَّاتِ وَالفَضَاءَ المُمْتَدّ.
2. **«مِيكَانِيكَا الكَمّ»:** وَهِيَ شَرِيعَةُ الصِّغَرِ وَالدِّقَّة، تَحْكُمُ الذَّرَّاتِ وَالإِلِكْتُرُونَاتِ وَالجُسَيْمَاتِ اللَّاهِيَة.

فِي سَائِرِ أَرْجَاءِ الكَوْن، تَعِيشُ كُلُّ شَرِيعَةٍ فِي مَمْلَكَتِهَا بِسَلَام.

أَمَّا فِي «المُفْرَدَةِ».. فَقَدْ جُمِعَتْ كُتْلَةُ النَّجْمِ العِمْلَاق (شَرِيعَةُ النِّسْبِيَّة) فِي نُقْطَةٍ أَصْغَرَ مِنْ نُوَاةِ الذَّرَّة (شَرِيعَةُ الكَمّ)!

فَالْتَقَى العِمْلَاقَانِ وَجْهاً لِوَجْه، وَتَصَادَمَتِ الشَّرِيعَتَان، وَأَخَذَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تُكَذِّبُ أُخْتَهَا وَتَنْقُضُ غَزْلَهَا! وَوَقَفَ الحُكَمَاءُ حَيَارَى بَيْنَهُمَا، يَبْحَثُونَ عَنْ «نَظَرِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ وَاحِدَة» (جَاذِبِيَّةِ الكَمّ) تَجْمَعُ الشَّتَات، فَلَمْ يَبْلُغُوهَا حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا!

خَاتِمَةُ الفَصْل: سُقُوطُ أَقْنِعَةِ الغُرُور

مِسْكِينٌ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَان!

كَمْ مَلَأْتَ الأَرْضَ خُيَلَاءَ وَأَنْتَ تَحْسَبُ أَنَّكَ قَدْ حِزْتَ العِلْمَ كُلَّهُ، وَأَحَطْتَ بِأَسْرَارِ الخَلْقِ جَمِيعِهَا، حَتَّى إِذَا وَقَفْتَ أَمَامَ «نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ» فِي قَلْبِ الظَّلَام، رَأَيْتَ حِكْمَتَكَ تَسْتَحِيلُ جَهْلاً، وَرَأَيْتَ عَقْلَكَ يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَاكِياً يَلْتَمِسُ شُعَاعاً مِنْ فَهْم!

إِنَّ «المُفْرَدَةَ» هِيَ الحِجَابُ الأَعْظَمُ الَّذِي وَضَعَهُ الخَالِقُ لِيَقُولَ لِكِبْرِيَاءِ العَقْلِ البَشَرِيّ: *«وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً»*.

وَلَكِنْ.. إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الهَاوِيَةُ مَحْجُوبَةً بِسِتَارِ الظُّلْمَة، وَإِذَا كَانَ النُّورُ نَفْسُهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا؛ **فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ الإِنْسَانُ أَنْ يَرَاهَا؟ وَكَيْفَ رَسَمَتْ أَبْصَارُنَا صُورَةً لِمَنْ لَا يُرَى؟!**

ذَلِكَ هُوَ الإِعْجَازُ الَّذِي سَنَبْدَأُ بِهِ **الجُزْءَ الرَّابِع:** فِي فَصْلِنَا القَادِمِ عَنْ **«خَيَالِ الظِّلّ»**.

مُقَدِّمَةُ الجُزْءِ الرَّابِع

«أَسْرَارُ مَا وَرَاءَ الحِجَاب.. الفِيزْيَاءُ المُتَقَدِّمَةُ بِأَبْسَطِ بَيَان»

أَحَسِبْتَ يَا صَاحِبِي أَنَّ حِكَايَتَنَا قَدْ بَلَغَتْ خَاتِمَتَهَا حِينَ وَقَفْنَا مَبْهُوتِينَ أَمَامَ «المُفْرَدَةِ» الصَّمَّاءِ فِي قَلْبِ الظَّلَام؟!

كَلَّا وَالَّذِي أَوْدَعَ فِي هَذَا الإِنْسَانِ شُعْلَةَ العَقْلِ وَشَغَفَ البَيَان!

إِنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ—وَإِنْ كَانَتْ أَسِيرَةَ الطِّينِ وَقَيْدِ التُّرَاب—تَأْبَى إِلَّا أَنْ تَمُدَّ طَرْفَهَا إِلَى مَا وَرَاءَ الحُجُبِ المَسْتُورَة، لِتَتَسَقَّطَ أَنْبَاءَ المَلَكُوت، وَتَسْتَنْطِقَ الصَّمْتَ حَتَّى يَبُوحَ بِأَعْظَمِ أَسْرَارِه!

فِي هَذَا **«الجُزْءِ الرَّابِع»**، سَنَرْتَقِي مَعاً إِلَى ذِرْوَةِ الفِكْرِ الكَوْنِيِّ الحَدِيث؛ حَيْثُ تَلْتَقِي «شَرِيعَةُ النِّسْبِيَّةِ الشَّاهِقَة» بـ«أَسْرَارِ الكَمِّ الدَّقِيقَة»، فَنَنْظُرُ فِي أَعْقَدِ قَضَايَا العِلْمِ لَا بِعُيُونِ الحَاسِبِينَ الجَافَّة، بَلْ بِلِسَانِ البَيَانِ العَذْبِ الَّذِي يَجْلُو الحَقَائِقَ وَيَكْشِفُ الغُمَّة:

- **سَنَشْهَدُ أَوَّلاً:** كَيْفَ اسْتَطَاعَ العَقْلُ البَشَرِيُّ الضَّئِيلُ أَنْ يَنْسِجَ مِنْ مَرَاصِدِ الأَرْضِ عَيْناً عِمْلَاقَةً وَاحِدَة، لِيَلْتَقِطَ خَيَالَ ظِلِّ هَذَا الوَحْشِ الَّذِي يَحْتَجِبُ خَلْفَ نُورِهِ **(خَيَالُ الظِّلّ: صُورَةُ الثَّقْبِ الأَسْوَد)**.
- **ثُمَّ نَتَسَمَّعُ ثَانِياً:** زَفَرَاتِ الوَدَاعِ الشَّجِيَّة؛ حِينَ يَبُوحُ لَنَا «هُوكِينْغ» بِأَنَّ هَذَا السِّجْنَ الكَوْنِيَّ لَيْسَ أَبَدِيّاً، بَلْ هُوَ يَبْكِي دُمُوعاً مِنْ نُورٍ حَتَّى يَفْنَى وَيَتَبَخَّر **(إِشْعَاعُ هُوكِينْغ)**.
- **ثُمَّ نَقِفُ ثَالِثاً:** فِي مَحْكَمَةِ الوُجُودِ الكُبْرَى، لِنَفُضَّ النِّزَاعَ بَيْنَ عَمَالِقَةِ الفِكْرِ حَوْلَ «مَصِيرِ الذِّكْرَى»: هَلْ يَمْحُو الثَّقْبُ تَارِيخَ مَا ابْتَلَعَهُ؟ أَمْ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ وَكُلَّ دَمْعَةٍ قَدْ كُتِبَتْ فِي لَوْحِ الأُفُقِ المَحْفُوظِ كِتَابَةً لَا تَبِيد **(مُفَارَقَةُ المَعْلُومَات)**.

ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا صَاحِبِي نَحْوَ الأُفُق..

فَقَدْ بَلَغْنَا ذِرْوَةَ النُّورِ فِي قَلْبِ الدَّيْجُور، وَهَا نَحْنُ نَفُضُّ خِتَامَ السِّرِّ الأَعْظَم!

الفَصْلُ العَاشِر

«خَيَالُ الظِّلّ.. كَيْفَ أَبْصَرَتِ البَصَائِرُ مَا لَا تَرَاهُ الأَبْصَار؟»

١ـ المَلِكُ المُحْتَجِبُ خَلْفَ أَسْتَارِه

لَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَ رَجُلاً مِنَ العَامَّة: «*كَيْفَ تَرَى شَيْئاً لَا يَنْبَعِثُ مِنْهُ نُورٌ، وَلَا يَرْتَدُّ عَنْهُ شُعَاعٌ، بَلْ يَبْتَلِعُ كُلَّ ضِيَاءٍ يَقْتَرِبُ مِنْهُ؟*» لَقَالَ لَكَ عَلَى الفَوْر: «*ذَلِكَ مُحَال! إِنَّ العَيْنَ لَا تُبْصِرُ إِلَّا بِالنُّور، فَمَا غَابَ عَنْهُ النُّورُ اسْتَحَالَ إِلَى عَدَمٍ لَا يُرَى!*».

وَحَقٌّ لَهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِك؛ فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ هَذَا الإِنْسَانُ الضَّئِيلُ—السَّاكِنُ فِي كُوخِهِ الصَّغِيرِ عَلَى كَوْكَبِ الأَرْض—أَنْ يَمُدَّ عَيْنَهُ عَبْرَ مَلَايِينِ السِّنِينَ الضَّوْئِيَّة، لِيَلْتَقِطَ صُورَةً لِذَلِكَ «الشَّبَحِ الكَوْنِيِّ» الَّذِي يَخْتَبِئُ فِي أَعْمَاقِ الظَّلَام؟!

إِنَّ الإِنْسَانَ لَمْ يَرَ الثَّقْبَ الأَسْوَدَ بِذَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ رَآهُ **«بِآثَارِ جَرِيمَتِهِ!»**؛ رَآهُ كَمَا يَرَى الصَّيَّادُ حَرَكَةَ الوَحْشِ الخَفِيِّ مِنْ رَجْفَةِ الأَغْصَانِ وَاضْطِرَابِ المِيَاه!

٢ـ إِكْلِيلُ الضَّحَايَا: قُرْصُ التَّنَامِي المُلْتَهِب

حِينَ تَقْتَرِبُ الغَازَاتُ الكَوْنِيَّةُ وَأَشْلَاءُ النُّجُومِ المَنْكُوبَةِ مِنْ حِمَى الثَّقْبِ الأَسْوَد، لَا تَهْوِي فِيهِ مُسْتَقِيمَةً دَفْعَةً وَاحِدَة، بَلْ تَدُورُ حَوْلَهُ فِي دُوَّامَةٍ جُنُونِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَلْقَى حَتْفَهَا، كَمَا تَدُورُ المِيَاهُ حَوْلَ بَالُوعَةِ الحَوْضِ السَّرِيعَة!

مِنْ شِدَّةِ هَذَا الدَّوَرَانِ الَّذِي يُقَارِبُ سُرْعَةَ الضَّوْء، تَحْتَكُّ ذَرَّاتُ الغَازِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ احْتِكَاكاً مَهُولاً، فَتَلْتَهِبُ وَتَسْتَعِرُ حَتَّى تَبْلُغَ حَرَارَتُهَا **مَلَايِينَ الدَّرَجَات!**

فَيَتَشَكَّلُ حَوْلَ عُنُقِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ طَوْقٌ وَهَّاجٌ مِنْ نَارٍ وَضِيَاء، يُسَمِّيهِ العُلَمَاءُ: **«قُرْصَ التَّنَامِي» (Accretion Disk)**.

إِنَّهُ إِكْلِيلٌ مَصْنُوعٌ مِنْ دُمُوعِ المَادَّةِ المُحْتَضِرَة؛ شُعْلَةٌ تُضِيءُ أَرْجَاءَ الفَضَاءِ لِتَفْضَحَ مَكَانَ الوَحْشِ الكَامِنِ فِي وَسَطِهَا! فَالنُّورُ الَّذِي نَرَاهُ لَيْسَ صَادِراً مِنَ الثَّقْب، بَلْ هُوَ **«صَرْخَةُ الِاسْتِغَاثَةِ الأَخِيرَة»** الَّتِي تُطْلِقُهَا المَادَّةُ قَبْلَ أَنْ تُسْحَبَ وَرَاءَ أُفُقِ الحَدَثِ إِلَى الأَبَد!

٣ـ سَرَابُ الزَّمَان: عَدَسَةُ الجَاذِبِيَّةِ وَخَاتَمُ النَّار

وَلَكِنَّ المَشْهَدَ لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الحَدّ؛ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ جَاذِبِيَّةَ الثَّقْبِ تَلْوِي مَسَارَاتِ النُّورِ لَيّاً.

لِذَلِكَ، فَإِنَّ الضَّوْءَ المُنْبَعِثَ مِنْ خَلْفِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ لَا يَخْتَفِي وَرَاءَهُ، بَلْ تَقُومُ الجَاذِبِيَّةُ بِعَطْفِهِ وَحَنْيِهِ نَحْوَنَا، كَأَنَّ الثَّقْبَ قَدْ لَبِسَ **«عَدَسَةً كَوْنِيَّةً عِمْلَاقَة»!**

فَيَبْدُو لَنَا قُرْصُ النَّارِ مَلْفُوفاً فَوْقَ الثَّقْبِ وَتَحْتَهُ فِي مَشْهَدٍ سَاحِرٍ يَخْلِبُ الأَلْبَاب، وَيَتَوَسَّطُ هَذَا الخَاتَمَ المُلْتَهِبَ قُرْصٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ ظَلَامٍ بَهِيم: هُوَ **«ظِلُّ الثَّقْبِ الأَسْوَد»!**

لَقَدْ رَأَيْنَا مَلِكَ الظَّلَامِ لَا بِجَسَدِهِ، بَلْ بِخَيَالِ ظِلِّهِ المَرْسُومِ عَلَى جِدَارِ النَّار!

٤ـ عَيْنُ الأَرْض: حِينَ تَوَحَّدَتِ البَشَرِيَّةُ لِتَصْنَعَ مُعْجِزَة

كَيْفَ التَقَطْنَا هَذَا الظِّلَّ وَهُوَ يَقْبَعُ فِي مَجَرَّةٍ بَعِيدَةٍ (M87*) تَبْعُدُ عَنَّا خَمْسَةً وَخَمْسِينَ مِلْيُونَ سَنَةٍ ضَوْئِيَّة؟!

إِنَّ رُؤْيَةَ هَذَا الثَّقْبِ مِنَ الأَرْضِ تُشْبِهُ—فِي عُرْفِ البَصَرِيَّات—مُحَاوَلَةَ رُؤْيَةِ «بُرْتُقَالَةٍ صَغِيرَةٍ مَوْضُوعَةٍ عَلَى سَطْحِ القَمَر!»، وَهُوَ أَمْرٌ يَعْجَزُ عَنْهُ أَقْوَى مِرْقَابٍ صَنَعَتْهُ أَيْدِينَا.

هُنَا تَجَلَّتْ عَبْقَرِيَّةُ الإِنْسَان؛ إِذْ قَرَّرَ العُلَمَاءُ أَلَّا يَنْظُرُوا بِمِرْقَابٍ وَاحِد، بَلْ رَبَطُوا مَرَاصِدَ الأَرْضِ كُلَّهَا—مِنْ ثُلُوجِ القُطْبِ الجَنُوبِيّ، إِلَى قِمَمِ جِبَالِ تْشِيلِي، إِلَى صَحَارِي هَاوَايِي وَأُورُوبَّا—بِشَبَكَةٍ وَاحِدَةٍ سَمَّوْهَا: **«مِقْرَابَ أُفُقِ الحَدَث» (EHT)**.

تَحَوَّلَ كَوْكَبُ الأَرْضِ كُلُّهُ إِلَى **«عَيْنٍ عِمْلَاقَةٍ وَاحِدَة»** بِحَجْمِ الكَوْكَب!

وَفِي يَوْمٍ تَارِيخِيٍّ مَشْهُودٍ مِنْ عَامِ (٢٠١٩م)، انْحَسَرَ اللِّثَامُ عَنْ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَبْكَتِ العُلَمَاءَ دَهْشَةً: **«حَلَقَةٌ بُرْتُقَالِيَّةٌ وَهَّاجَةٌ تُعَانِقُ هُوَّةً سَوْدَاءَ فِي الوَسَط»**.. لَقَدْ صَافَحَتْ أَبْصَارُنَا ظِلَّ الهاوِيَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الوُجُود!

خَاتِمَةُ الفَصْل: انْتِصَارُ البَصِيرَةِ عَلَى البَصَر

مَا أَعْظَمَكَ أَيُّهَا العَقْلُ البَشَرِيُّ حِينَ تَسْتَنِيرُ بِالبَصِيرَة!

جَسَدُكَ مُقَيَّدٌ فِي طِينِ هَذِهِ الأَرْض، وَلَكِنَّ فِكْرَكَ يَطُوفُ فِي أَقَاصِي السَّمَاوَات. لَمْ تَمْلِكْ عَيْناً تَنْفُذُ فِي الظُّلُمَات، فَصَنَعْتَ مِنْ عِلْمِكَ عَيْناً؛ وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَرَى الغَائِبَ فِي سِتْرِهِ، فَأَبْصَرْتَهُ بِخَيَالِ ظِلِّهِ!

وَلَكِنْ.. بَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا هَذَا المَلِكَ المَخُوفَ فِي عَرْشِهِ، وَشَهِدْنَا جَبَرُوتَهُ الَّذِي يَبْتَلِعُ كُلَّ شَيْء.. **هَلْ هَذَا الثَّقْبُ خَالِدٌ لَا يَمُوت؟ أَمْ أَنَّ لَهُ أَيْضاً يَوْماً يَبْكِي فِيهِ وَيَتَلَاشَى كَمَا تَلَاشَتِ النُّجُومُ مِنْ قَبْلِه؟!**

ذَلِكَ هُوَ السِّرُّ الَّذِي سَيَبُوحُ لَنَا بِهِ فِيزْيَائِيٌّ مُقْعَدٌ غَيَّرَ مَفَاهِيمَ الكَوْن.. فِي فَصْلِنَا القَادِم: **«زَفَرَاتُ الوَدَاع.. حِينَ يَبْكِي الثَّقْبُ وَتَتَبَخَّرُ الجَبَابِرَة»**.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

«زَفَرَاتُ الوَدَاع.. حِينَ يَبْكِي الثَّقْبُ وَتَتَبَخَّرُ الجَبَابِرَة»

١ـ الحَكِيمُ المُقْعَدُ وَوَهْمُ الخُلُود

ظَلَّ العُلَمَاءُ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ «الثَّقْبَ الأَسْوَدَ» هُوَ القَبْرُ الأَبَدِيُّ الَّذِي لَا يُفْتَحُ أَبَداً؛ وَحْشٌ كَوْنِيٌّ نَهِمٌ، يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَع، وَيَأْخُذُ وَلَا يُعْطِي، وَيَزْدَادُ مَعَ كُلِّ لُقْمَةٍ ضَخَامَةً وَقُوَّةً، حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الكَائِنُ الوَحِيدُ الَّذِي كُتِبَ لَهُ الخُلُودُ فِي هَذَا الوُجُود!

حَتَّى جَاءَ حَكِيمٌ إِذْ عَجَزَ جَسَدُهُ طَارَتْ رُوحُهُ، هُوَ «سْتِيفِن هُوكِينْغ»..

رَجُلٌ حُبِسَ جَسَدُهُ كُلُّهُ فِي كُرْسِيٍّ مِنْ حَدِيد، وَخَرِسَ لِسَانُهُ عَنِ الكَلَام، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ حَيّاً إِلَّا عَقْلٌ جَبَّارٌ يُحَلِّقُ فِي سَمَاوَاتِ المَلَكُوت! نَظَرَ هَذَا الحَكِيمُ المُقْعَدُ إِلَى عَرْشِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ بِمِرْآةِ «مِيكَانِيكَا الكَمّ»، ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةَ العَارِفِ وَقَالَ:

«كَلَّا يَا جَبَابِرَةَ الفَضَاءِ! لَسْتُمْ خَالِدِينَ كَمَا تَزْعُمُون.. إِنَّ فِي قُلُوبِكُمْ نَزِيفاً خَفِيّاً، وَإِنَّ لَكُمْ يَوْماً تَبْكُونَ فِيهِ دُمُوعاً مِنْ ضِيَاء، ثُمَّ تَتَبَخَّرُونَ كَمَا تَتَبَخَّرُ قَطْرَةُ النَّدَى إِذَا قَبَّلَتْهَا شَمْسُ الصَّبَاح!».

٢ـ الفَرَاغُ الَّذِي لَا يَهْدَأ: رَقْصَةُ الأَشْبَاحِ الكَمُومِيَّة

لِكَيْ نَفْهَمَ هَذِهِ النُّبُوءَةَ العَجِيبَة، يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ «الفَرَاغَ» فِي هَذَا الكَوْنِ لَيْسَ عَدَماً مَحْضاً كَمَا نَتَوَهَّم.

إِنَّ الخَلَاءَ يَمُوجُ فِي أَعْمَاقِهِ الدَّقِيقَةِ بِحَيَاةٍ غَرِيبَةٍ لَا تَهْدَأ؛ فَفِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ مِلْيَارَاتِ الأَجْزَاءِ مِنَ الثَّانِيَة، يُولَدُ مِنْ رَحِمِ الفَرَاغِ **«زَوْجَانِ مِنَ الجُسَيْمَاتِ الدَّقِيقَة»**: جُسَيْمٌ مِنَ المَادَّة، وَآخَرُ مِنْ نَقِيضِهَا (المَادَّةِ المُضَادَّة).

يَخْرُجَانِ مَعاً كَتَوْأَمَيْنِ عَاشِقَيْن، يَتَعَانَقَانِ فِي لَحْظَةِ وِلَادَتِهِمَا، ثُمَّ يُفْنِي كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ لِيَعُودَا إِلَى العَدَمِ مِنْ حَيْثُ أَتَيَا! هَكَذَا هِيَ رَقْصَةُ الفَرَاغِ فِي كُلِّ شِبْرٍ مِنَ الفَضَاءِ: وِلَادَةٌ خَاطِفَة، ثُمَّ عِنَاق، ثُمَّ فَنَاءٌ سَرِيع!

٣ـ الفِرَاقُ عِنْدَ شَفِيرِ المَوْت: وِلَادَةُ إِشْعَاعِ هُوكِينْغ

وَلَكِنْ.. مَاذَا يَحْدُثُ لَوْ وَقَعَتْ هَذِهِ الرَّقْصَةُ عَلَى «شَفِيرِ أُفُقِ الحَدَثِ» تَمَاماً؟ هُنَا تَقَعُ المَأْسَاة!

يُولَدُ التَّوْأَمَانِ عَلَى الحَافَّةِ الفَاصِلَة، وَقَبْلَ أَنْ يَتَعَانَقَا لِيَفْنَيَا، تَمُدُّ الجَاذِبِيَّةُ يَدَهَا البَاطِشَةَ فَتَخْطَفُ أَحَدَهُمَا وَتَسْحَبُهُ إِلَى قَعْرِ الثَّقْبِ الأَسْوَد!

فَيَبْقَى التَّوْأَمُ الآخَرُ وَحِيداً شَرِيداً فِي الخَارِج! لَقَدْ فَقَدَ قَرِينَهُ الَّذِي كَانَ سَيَفْنَى مَعَهُ، فَلَا يَجِدُ بُدّاً مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى «جُسَيْمٍ حَقِيقِيٍّ كَامِل»، فَيَمْتَطِي صَهْوَةَ الفَضَاءِ وَيَفِرَّ هَارِباً إِلَى أَرْجَاءِ الكَوْنِ عَلَى هَيْئَةِ شُعَاعٍ ضَئِيلٍ مِنَ الضِّيَاءِ وَالحَرَارَة!

هَذَا الشُّعَاعُ الهَارِبُ هُوَ مَا سَمَّاهُ العَالَمُ: **«إِشْعَاعَ هُوكِينْغ» (Hawking Radiation)**.

٤ـ نَزِيفُ الجَبَابِرَة: حِينَ يَدْفَعُ الثَّقْبُ ثَمَنَ الحُرِّيَّة

مِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الطَّاقَةُ الَّتِي صَنَعَتْ ذَلِكَ الجُسَيْمَ الهَارِب؟

إِنَّ قَوَانِينَ الكَوْنِ الصَّارِمَةَ لَا تَعْرِفُ شَيْئاً يُوهَبُ مَجَّاناً! لَقَدْ دُفِعَ ثَمَنُ ذَلِكَ النُّورِ **مِنْ لَحْمِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ وَكُتْلَتِهِ!**

إِنَّ الجُسَيْمَ الَّذِي ابْتَلَعَهُ الثَّقْبُ يَحْمِلُ «طَاقَةً سَالِبَة»، كَأَنَّهُ سُمٌّ يَنْخَرُ فِي جَسَدِ المَلِك؛ فَكُلَّمَا انْطَلَقَ جُسَيْمٌ نَحْوَ الخَارِج، نَقَصَتْ كُتْلَةُ الثَّقْبِ بِمِقْدَارِهِ فِي الدَّاخِل!

هَهُنَا تَجَلَّتِ الحَقِيقَةُ الشَّجِيَّة: **الثَّقْبُ الأَسْوَدُ يَنْزِف!**

هُوَ لَا يَبْتَلِعُ إِلَى الأَبَد، بَلْ هُوَ يَعْرَقُ وَيَئِنُّ وَيَفْقِدُ مِنْ وَزْنِهِ فِي كُلِّ لَحْظَة. إِنَّهُ شَمْعَةٌ كَوْنِيَّةٌ سَوْدَاء، تَبْكِي قَطَرَاتٍ مِنْ نُورٍ خَفِيّ، وَتَذُوبُ رُوَيْداً رُوَيْداً فِي صَمْتِ الأَبَدِيَّة!

٥ـ السَّكْرَةُ الأَخِيرَة: كَيْفَ يَمُوتُ الثَّقْبُ الأَسْوَد؟

قَدْ تَمْضِي عَلَى الثَّقْبِ الأَسْوَدِ دُهُورٌ لَا يَتَصَوَّرُهَا عَقْل (مِلْيَارَاتُ مِلْيَارَاتِ المِلْيَارَاتِ مِنَ السِّنِين) وَهُوَ يَفْقِدُ كُتْلَتَهُ قَطْرَةً قَطْرَة.

وَلَكِنَّ العَجِيبَ فِي أَمْرِهِ أَنَّهُ كُلَّمَا صَغُرَ حَجْمُهُ، زَادَتْ حَرَارَتُهُ، وَتَسَارَعَ نَزِيفُهُ!

حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ أَيَّامُهُ الأَخِيرَة، وَصَارَ كُتْلَةً صَغِيرَةً لَا تَكَادُ تَبِين، تَحَوَّلَ نَزِيفُهُ الهَادِئُ إِلَى سُعَارٍ مَجْنُون.. فَيَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ فِي **«انْفِجَارٍ ضَوْئِيٍّ هَائِل»**، كَأَنَّهَا صَرْخَةُ المَوْتِ الَّتِي يُعْلِنُ فِيهَا فَنَاءَهُ التَّام، ثُمَّ يَخْتَفِي مِنَ الوُجُودِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطّ!

خَاتِمَةُ الفَصْل: سُبْحَانَ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت

هَكَذَا سَقَطَ آخِرُ أَقْنِعَةِ الخُلُودِ عَنْ جَبَابِرَةِ السَّمَاء.

حَتَّى تِلْكَ الهَاوِيَةُ الَّتِي ابْتَلَعَتِ النُّجُومَ وَطَوَتِ الزَّمَان، سَتَأْتِي عَلَيْهَا لَحْظَةٌ تَذُوبُ فِيهَا وَتَفْنَى، لِيَبْقَى الكَوْنُ بَعْدَهَا خَالِياً بَارِداً سَاكِناً، شَاهِداً عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَان، وَلَا يَبْقَى إِلَّا وَجْهُ مَنْ أَبْدَعَ هَذَا النِّظَام!

وَلَكِنْ.. هُنَا يَصْرُخُ العَقْلُ بِسُؤَالٍ أَخِيرٍ يَهُزُّ أَرْكَانَ الوُجُود:

إِذَا كَانَ الثَّقْبُ سَيَتَبَخَّرُ وَيَخْتَفِي إِلَى الأَبَد.. **فَأَيْنَ ذَهَبَتْ كُلُّ تِلْكَ الأَشْيَاءِ الَّتِي ابْتَلَعَهَا فِي حَيَاتِهِ؟! أَيْنَ مَاتَتْ ذِكْرَيَاتُ النُّجُوم، وَتَارِيخُ الكَوَاكِب، وَرُفَاتُ السَّابِحِينَ؟! هَلْ يَضِيعُ المَاضِي فِي مَقْبَرَةِ النِّسْيَان؟**

ذَلِكَ هُوَ الصِّرَاعُ الفِكْرِيُّ الأَعْظَمُ فِي تَارِيخِ الفِيزْيَاءِ الحَدِيثَة.. فِي فَصْلِنَا الثَّانِي عَشَر: **«لُغْزُ الذِّكْرَى الضَّائِعَة.. مُفَارَقَةُ المَعْلُومَاتِ وَمَصِيرُ الوُجُود»**.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

«لُغْزُ الذِّكْرَى الضَّائِعَة.. مُفَارَقَةُ المَعْلُومَاتِ وَمَصِيرُ الوُجُود»

١ـ سِجِلُّ الوُجُود: شَرِيعَةُ الكَوْنِ الَّتِي لَا تَنْسَى

لَوْ أَنَّكَ كَتَبْتَ رِسَالَةَ غَرَامٍ إِلَى حَبِيبَتِكَ عَلَى قِرْطَاسٍ مِنَ الوَرَق، ثُمَّ نَدِمْتَ عَلَى مَا بَثَثْتَ فِيهَا مِنْ لَوْعَةِ فُؤَادِكَ، فَأَلْقَيْتَهَا فِي المَوْقِدِ حَتَّى اسْتَحَالَتْ إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاح؛ فَإِنَّ عَقْلَكَ البَسِيطَ سَيَقُولُ لَكَ: *«لَقَدْ مَاتَتِ الرِّسَالَةُ، وَانْمَحَتْ كَلِمَاتُهَا مِنَ الوُجُودِ إِلَى الأَبَد!»*.

وَلَكِنَّ فِيزْيَاءَ الكَمِّ تَقِفُ لَكَ بِالمِرْصَادِ وَتَقُول: **«كَلَّا! إِنَّ الكَوْنَ لَا يَنْسَى حَرْفاً وَاحِداً!»**.

لَوْ أَنَّ حَكِيماً جَمَعَ كُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ ذَلِكَ الرَّمَاد، وَقَاسَ كُلَّ مَوْجَةِ حَرَارَةٍ خَرَجَتْ مِنَ اللَّهِيب، وَتَتَبَّعَ كُلَّ جُزَيْءِ دُخَانٍ طَارَ فِي الهَوَاءِ، لَاسْتَطَاعَ—بِحُكْمِ قَوَانِينِ الكَمِّ—أَنْ يُعِيدَ تَرْكِيبَ تِلْكَ الرِّسَالَةِ حَرْفاً حَرْفاً!

هَذَا هُوَ قَانُونُ **«حِفْظِ المَعْلُومَات» (Conservation of Information)**:
«المَادَّةُ تَتَبَدَّلُ صُوَرُهَا، وَالأَشْكَالُ تَتَغَيَّرُ، وَلَكِنَّ "الهُوِيَّةَ وَالمَاضِيَ" لَا يَفْنَيَانِ فِي شَرِيعَةِ الطَّبِيعَةِ أَبَداً!».

٢ـ مِمْحَاةُ الهاوِيَة: فِجِيعَةُ النِّسْيَانِ الكَوْنِيّ

هُنَا وَقَعَتِ الصَّاعِقَةُ الَّتِي زَلْزَلَتْ مَحَارِيبَ العِلْمِ الحَدِيث!

سَأَلَ العُلَمَاءُ أَنْفُسَهُم: إِذَا كَانَ الثَّقْبُ الأَسْوَدُ يَبْتَلِعُ كُلَّ شَيْء—يَبْتَلِعُ كُتُبَ الفَلَاسِفَة، وَتَارِيخَ الأُمَم، وَأَجْسَادَ النُّجُوم، وَأَرْوَاحَ الذَّرَّات—ثُمَّ عَلِمْنَا مِنْ «هُوكِينْغ» أَنَّهُ يَتَبَخَّرُ فِي النِّهَايَةِ لِيَصِيرَ دُخَاناً مِنْ إِشْعَاعٍ حَرَارِيٍّ أَعْمَى لَا مَلَامِحَ لَهُ وَلَا هُوِيَّة...

فَأَيْنَ ذَهَبَتْ تِلْكَ المَعْلُومَات؟!

أَيَعْقِلُ أَنَّ الثَّقْبَ الأَسْوَدَ قَدْ مَسَحَ المَاضِي كَمَا يَمْسَحُ اللَّوْحَ المِمْحَاة؟!

إِنْ كَانَ كَذَلِك، فَقَدْ كُذِبَتْ مِيكَانِيكَا الكَمِّ، وَانْهَارَتْ أَعْظَمُ رَكِيزَةٍ فِي الفِيزْيَاءِ الحَدِيثَة، وَأَصْبَحَ الكَوْنُ مَسْرَحاً لِلْعَبَثِ يَضِيعُ فِيهِ المَاضِي كَأَنَّهُ لَمْ يَكُن!

هَذِهِ المَأْسَاةُ هِيَ مَا عُرِفَ فِي التَّارِيخِ بِاسْمِ: **«مُفَارَقَةِ مَعْلُومَاتِ الثَّقْبِ الأَسْوَد» (The Information Paradox)**.

٣ـ حَرْبُ العُقُول: هُوكِينْغ فِي مُوَاجَهَةِ سُوسْكَايْنْد

انْقَسَمَ حُكَمَاءُ الأَرْضِ إِلَى مُعَسْكَرَيْنِ فِي حَرْبٍ فِكْرِيَّةٍ دَامَتْ ثَلَاثِينَ عَاماً:

- **وَقَفَ «سنْتِيفِن هُوكِينْغ» بِكِبْرِيَاءِ النِّسْبِيَّةِ قَائِلاً:** *«إِنَّ المَعْلُومَاتِ تَفْنَى فِي قَعْرِ المُفْرَدَةِ بِلَا رَجْعَة! وَإِنَّ الخَالِقَ لَا يَرْمِي النَّرْدَ فِي الكَوْنِ فَقَط، بَلْ يَرْمِيهِ حَيْثُ لَا نَرَاه!»*.
- **فَصَاحَ فِي وَجْهِهِ العَالِمُ الأَمْرِيكِيُّ «لِيُونَارْد سُوسْكَايْنْد» وَصَحْبُهُ:** *«كَلَّا يَا هُوكِينْغ! إِنَّ ضَيَاعَ المَعْلُومَةِ يَعْنِي مَوْتَ العِلْمِ كُلِّهِ! لَا بُدَّ أَنَّ المَاضِيَ يَنْجُو بِطَرِيقَةٍ مَا، وَلَنْ نَسْمَحَ لِثَقْبِكَ أَنْ يَمْحُوَ ذِكْرَيَاتِ الوُجُود!»*.

وَظَلَّتِ المَعْرَكَةُ مُسْتَعِرَةً، حَتَّى انْبَلَجَ فَجْرُ نَظَرِيَّةٍ سَاحِرَةٍ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَر!

٤ـ المَبْدَأُ الهُولُوغْرَافِيّ: نُقُوشٌ عَلَى جُدْرَانِ البَرْزَخ

قَالَ سُوسْكَايْنْد وَأَنْصَارُه:

حِينَ يَهْوِي الجِسْمُ فِي الثَّقْبِ الأَسْوَد، فَإِنَّهُ لَا يَغِيبُ فِي الدَّاخِلِ دُونَ أَنْ يَتْرُكَ أَثَراً؛ بَلْ تُطْبَعُ «نُسْخَةٌ كَامِلَةٌ» مِنْ مَعْلُومَاتِهِ وَذَرَّاتِهِ عَلَى سَطْحِ **«أُفُقِ الحَدَثِ»** الخَارِجِيّ، كَمَا تُنْقَشُ الصُّوَرُ عَلَى رُقَاقَةٍ مِنَ الفِضَّة!

فَأُفُقُ الحَدَثِ لَيْسَ غِشَاءً مَيِّتاً، بَلْ هُوَ **«لَوْحٌ مَحْفُوظٌ»** ذُو بُعْدَيْن، نُقِشَتْ عَلَى جُدْرَانِهِ قِصَّةُ كُلِّ مَا ابْتَلَعَهُ الثَّقْبُ مُنْذُ مَبْدَإِ خَلْقِه!

فَإِذَا بَدَأَ الثَّقْبُ يَتَبَخَّرُ وَيُطْلِقُ «إِشْعَاعَ هُوكِينْغ»، خَرَجَتْ تِلْكَ النُّقُوشُ مَعَ جُسَيْمَاتِ النُّورِ مَبْثُوثَةً فِي رِيَاحِ الفَضَاءِ.. خَرَجَتْ مُشَفَّرَةً، مُعَقَّدَةً كَأَحَاجِي الطَّلَاسِم، وَلَكِنَّهَا **«حَيَّةٌ لَمْ تَمُتْ!»**.

وَفِي عَامِ (٢٠٠٤م)، وَقَفَ هُوكِينْغ أَمَامَ المَلَأِ مُعْتَرِفاً بِانْكِسَارِ رَأْيِهِ، مُعْلِناً أَنَّ الذِّكْرَى لَا تَمُوت، وَأَنَّ الثَّقْبَ الأَسْوَدَ لَا يَمْحُو كِتَابَ التَّارِيخ!

خَاتِمَةُ الفَصْل: عَزَاءُ الفَنَاء.. لَسْتَ مَنْسِيّاً فِي الكَوْن!

تَأَمَّلْ مَعِي يَا صَاحِبِي فِي هَذَا العَزَاءِ الإِلَهِيِّ العَظِيم!

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الهَاوِيَةُ المُرَوِّعَة—الَّتِي تَبْتَلِعُ الشُّمُوسَ وَتَصْهَرُ الحَدِيد—تَعْجَزُ عَنْ أَنْ تَمْحُوَ مَعْلُومَةً وَاحِدَةً لِذَرَّةٍ بَائِسَة، أَوْ أَنْ تُضَيِّعَ هُوِيَّةَ جُسَيْمٍ صَغِيرٍ فِي سِجِلِّ الكَوْن...

فَكَيْفَ تَظُنُّ أَنَّ حَيَاتَكَ أَنْتَ سَتَمْضِي سُدًى؟!

كَيْفَ تَحْسَبُ أَنَّ دُمُوعَكَ الَّتِي ذَرَفْتَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْل، وَصَلَوَاتِكَ الَّتِي هَمَسْتَ بِهَا فِي خَلَوَاتِكَ، وَأَحْزَانَكَ الَّتِي كَتَمْتَهَا فِي صَدْرِكَ، سَتَضِيعُ فِي رِيَاحِ العَدَم؟!

إِنَّ كُلَّ خَفْقَةِ قَلْبٍ، وَكُلَّ نَأْمَةِ وَجْدٍ، وَكُلَّ لَحْظَةِ شَقَاءٍ قَدْ كُتِبَتْ فِي «نَسِيجِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ» كِتَابَةً لَا يَمْحُوهَا مَوْتٌ وَلَا يَطْوِيهَا فَنَاء!

لَقَدْ بَلَغْنَا يَا خَلِيلِي مُنْتَهَى الرِّحْلَةِ فِي أَعْمَاقِ العِلْم..

فَهَلُمَّ بِنَا نَقِفْ فِي مَحَطَّتِنَا الأَخِيرَة، لِنَسْكُبَ دَمْعَةَ الخُشُوعِ فِي **«خَاتِمَةِ الكِتَاب: دَمْعَةٌ عَلَى مَسْرَحِ الأَبَدِيَّة»**.

الخَاتِمَة

«دَمْعَةٌ عَلَى مَسْرَحِ الأَبَدِيَّة»

١ـ مُنَاجَاةُ الوَدَاع: مَاذَا عَلَّمَتْنَا الهَاوِيَة؟

هَا قَدْ بَلَغْنَا شَاطِئَ النِّهَايَةِ يَا صَاحِبِي، وَانْقَضَتْ رِحْلَتُنَا الَّتِي طُفْنَا فِيهَا حَوْلَ أَشَدِّ أَرْكَانِ الكَوْنِ هَوْلاً وَأَعْظَمِهَا جَلَالاً.

تَعَالَ نَقِفْ مَرَّةً أُخْرَى تَحْتَ قُبَّةِ اللَّيْلِ السَّاهِم، كَمَا وَقَفْنَا فِي أَوَّلِ صَفْحَةٍ مِنْ هَذَا الكِتَاب.. وَلَكِنْ، هَلْ تَرَى السَّمَاءَ اللَّيْلَةَ كَمَا كُنْتَ تَرَاهَا بِالأَمْس؟

كَلَّا! لَقَدْ تَبَدَّلَتْ نَظْرَتُكَ، وَاسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُكَ؛ فَلَمْ تَعُدْ تِلْكَ النُّجُومُ عِنْدَكَ مُجَرَّدَ قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ فِي الخَلَاء، بَلْ صِرْتَ تَرَاهَا **«كَائِنَاتٍ حَيَّةً تَتَنَفَّسُ وَتُعَانِي»**، تَبْذُلُ أَرْوَاحَهَا لِتَمْنَحَنَا الضِّيَاء، وَتَمُوتُ لِتَنْثُرَ فِي الفَضَاءِ رَمَادَ الحَيَاة!

وَمَا كُنْتَ تَحْسَبُهُ وَحْشاً كَوْنِيّاً كَاسِراً—ذَلِكَ «الثَّقْبَ الأَسْوَد»—قَدْ تَجَلَّى لَكَ فِي خِتَامِ الرِّحْلَةِ عَلَى حَقِيقَتِهِ الكُبْرَى:

إِنَّهُ لَيْسَ مَقْبَرَةً لِلْفَنَاءِ فَحَسْب، بَلْ هُوَ «مَهْدٌ لِلْوُجُودِ أَيْضاً!».

لَقَدْ عَلِمْنَا العِلْمُ الحَدِيثُ أَنَّ فِي قَلْبِ كُلِّ مَجَرَّةٍ مِنْ مَجَرَّاتِ السَّمَاءِ «ثَقْباً أَسْوَدَ عِمْلَاقاً» يَرْقُدُ فِي مَرْكَزِهَا كَالوَتِدِ الرَّاسِي؛ يُمْسِكُ بِمِلْيَارَاتِ النُّجُومِ حَوْلَهُ، وَيَرْعَى مَسَارَاتِهَا، وَيَصْنَعُ مِنْ حَرَكَتِهَا ذَلِكَ النَّسَقَ البَدِيعَ الَّذِي وَلَدَتْ فِي ظِلَالِهِ شَمْسُنَا وَأَرْضُنَا! فَلَوْلَا هَذِهِ الهَاوِيَةُ الرَّحِيمَةُ لَتَفَرَّقَتِ الشُّمُوسُ فِي تِيهِ الفَضَاءِ شَذَرَ مَذَر، وَلَمَا كَانَتْ لَنَا حَيَاة!

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ مِنْ قَلْبِ الظُّلْمَةِ نُوراً، وَمِنْ رَحِمِ المَوْتِ حَيَاةً، وَمِنْ شَفِيرِ الفَنَاءِ سَبَباً لِلْبَقَاءِ!

مَا أَضْأَلَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ فِي جَسَدِكَ، وَمَا أَعْظَمَكَ فِي رُوحِكَ وَعَقْلِكَ!

جِئْتَ إِلَى هَذَا الكَوْنِ طِفْلاً بَاكِياً لَا تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِكَ شَيْئاً، وَتَرْحَلُ عَنْهُ رَاحِلاً لَا تَأْخُذُ مَعَكَ شَيْئاً، وَلَكِنَّكَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ العَابِرَةِ بَيْنَ المَهْدِ وَاللَّحْد، اسْتَطَعْتَ أَنْ تَفُضَّ أَقْفَالَ السَّمَاءِ، وَأَنْ تَنْفُذَ بِبَصِيرَتِكَ إِلَى مَا وَرَاءِ حُجُبِ المَلَكُوت!

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْتِمَ هَذِهِ الرِّحْلَة، فَلَا تَخْتِمْهَا بِكِبْرِيَاءِ العَالِم، بَلْ **«بِدَمْعَةِ الخَاشِع»**..

دَمْعَةٍ تَسْكُبُهَا عَلَى مَسْرَحِ هَذِهِ الأَبَدِيَّة، مُعْتَرِفاً بِضَعْفِكَ، مَأْخُوذاً بِجَلَالِ خَالِقِكَ، رَادِداً مَعَ الرَّاحِلِينَ فِي دُرُوبِ المَعْرِفَة:
«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

٢ـ مُعْجَمُ الأَلْفَاظِ وَالِاصْطِلَاحَات

(مَلْحَقٌ بَيَانِيٌّ مُيَسَّرٌ لِأَهَمِّ حَقَائِقِ الكِتَاب)

- **الجَاذِبِيَّةُ (Gravity):**
عِلْمِيّاً: انْحِنَاءٌ فِي نَسِيجِ الزَّمَكَانِ تُحْدِثُهُ الكُتْلَةُ فَيَجْعَلُ الأَجْسَامَ تَتَحَرَّكُ نَحْوَ بَعْضِهَا.
بَيَانِيّاً: عَاطِفَةُ المَادَّةِ الخَفِيَّةُ وَحَنِينُ الذَّرَّاتِ إِلَى العِنَاق.
- **السَّنَةُ الضَّوْئِيَّةُ (Light-Year):**
عِلْمِيّاً: وَحْدَةُ قِيَاسِ المَسَافَةِ فِي الفَضَاءِ، وَهِيَ المَسَافَةُ الَّتِي يَقْطَعُهَا الضَّوْءُ فِي سَنَةٍ كَامِلَة (تُقَارِبُ ٩.٥ تِرِيلْيُونَ كِيلُومِتْر).
بَيَانِيّاً: مِيزَانُ المَسَافَاتِ فِي بِلَادِ اللَّانِهَايَة.
- **الزَّمَكَانُ (Spacetime):**
عِلْمِيّاً: النَّسِيجُ الرُّبَاعِيُّ الأَبْعَادِ الَّذِي يَدْمِجُ الأَبْعَادَ المَكَانِيَّةَ الثَّلَاثَةَ مَعَ بُعْدِ الزَّمَانِ فِي كِيَانٍ مَرِنٍ وَاحِد (نَظَرِيَّةُ النِّسْبِيَّةِ لِآيِنْشْتَايْن).
بَيَانِيّاً: بِسَاطُ الوُجُودِ الحَرِيرِيُّ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ المَكَانُ سَدًى وَالزَّمَانُ لُحْمَة.
- **الِانْدِمَاجُ النَّوَوِيُّ (Nuclear Fusion):**
عِلْمِيّاً: عَمَلِيَّةُ التِحَامِ أَنْوِيَةِ الذَّرَّاتِ الخَفِيفَة (كَالهَيْدْرُوجِين) لِتَكْوِينِ أَنْوِيَةٍ أَثْقَل (كَالهِيلْيُوم)، مِمَّا يُطْلِقُ طَاقَةً هَائِلَةً تَمْنَعُ النَّجْمَ مِنَ الِانْهِيَار.
بَيَانِيّاً: شُعْلَةُ الحَيَاةِ فِي قَلْبِ النَّجْمِ الَّتِي تُقَاتِلُ قَبْضَةَ المَوْت.
- **المُسْتَعِرُ الأَعْظَمُ - سُوبَرْنُوفَا (Supernova):**
عِلْمِيّاً: انْفِجَارٌ كَوْنِيٌّ كَارِثِيٌّ يَقَعُ فِي نِهَايَةِ عُمْرِ النُّجُومِ العِمْلَاقَةِ عِنْدَ نَفَادِ وَقُودِهَا، يَنْشُرُ العَنَاصِرَ الثَّقِيلَةَ فِي الفَضَاء.
بَيَانِيّاً: صَرْخَةُ المَوْتِ المَجِيدَةُ الَّتِي تَبْعَثُ الحَيَاةَ فِي أَرْجَاءِ المَجَرَّة.
- **حَدُّ تْشَانْدْرَاسِيخَار (Chandrasekhar Limit):**
عِلْمِيّاً: أَقْصَى كُتْلَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَهَا "القَزَمُ الأَبْيَض" دُونَ أَنْ يَنْهَار (حَوَالَيْ ١.٤ كُتْلَة شَمْسِيَّة).
بَيَانِيّاً: قَلْعَةُ الدِّفَاعِ الأُولَى حَيْثُ تَنْكَسِرُ سِهَامُ الإِلِكْتُرُونَات.
- **حَدُّ تُولْمَان-أُوبِنْهَايْمَر-فُولْكُوف (TOV Limit):**
عِلْمِيّاً: الحَدُّ الأَقْصَى لِكُتْلَةِ "النَّجْمِ النِّيُوتْرُونِيّ" (حَوَالَيْ ٢.٢ إِلَى ٣ كُتَلٍ شَمْسِيَّة)، إِذَا تَجَاوَزَهَا الِانْهِيَارُ تَحَوَّلَ حَتْماً إِلَى ثَقْبٍ أَسْوَد.
بَيَانِيّاً: الحِصْنُ الأَخِيرُ لِلْمَادَّةِ قَبْلَ الِاسْتِسْلَامِ التَّامِّ لِلْهَاوِيَة.
- **أُفُقُ الحَدَثِ (Event Horizon):**
عِلْمِيّاً: الحُدُودُ الخَارِجِيَّةُ المُحِيطَةُ بِالثَّقْبِ الأَسْوَد، حَيْثُ تَتَسَاوَى سُرْعَةُ الإِفْلَاتِ عِنْدَهَا مَعَ سُرْعَةِ الضَّوْء، فَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ شَيْءٍ تَعَدَّاهَا أَنْ يَعُود.
بَيَانِيّاً: شَاطِئُ اللَّاعَوْدَة، وَغِشَاءُ البَرْزَخِ الشَّفَّافُ الفَاصِلُ بَيْنَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَالغَيْب.
- **التَّمَدُّدُ المَعْكَرُونِيُّ (Spaghettification):**
عِلْمِيّاً: تَأْثِيرُ قُوَى المَدِّ وَالجَزْرِ الثِّقَالِيَّةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَمُطُّ الأَجْسَامَ طُولِيّاً وَتَعْصِرُهَا عَرْضِيّاً أَثْنَاءَ سُقُوطِهَا نَحْوَ الثَّقْب.
بَيَانِيّاً: عَذَابُ التَّمَزُّقِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الجَسَدُ إِلَى خَيْطٍ يَسْبَحُ فِي قَعْرِ الظُّلْمَة.
- **المُفْرَدَةُ (The Singularity):**
عِلْمِيّاً: نُقْطَةٌ فِي مَرْكَزِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ تَنْضَغِطُ فِيهَا المَادَّةُ إِلَى حَجْمِ الصِّفْرِ مَعَ كَثَافَةٍ وَانْحِنَاءٍ لَانِهَائِيَّيْن، وَتَنْهَارُ عِنْدَهَا قَوَانِينُ الفِيزْيَاءِ المَعْرُوفَة.
بَيَانِيّاً: قَلْبُ الظُّلْمَةِ المُطْلَق، وَالمَذْبَحُ الَّذِي تَنْتَحِرُ عِنْدَهُ القَوَانِين.

- **قُرْصُ التَّنَامِي (Accretion Disk):**
عِلْمِيّاً: قُرْصٌ دَوَّارٌ مِنْ غَازَاتٍ وَمَوَادَّ مُلْتَهِبَةٍ تُحِيطُ بِالثَّقْبِ الأَسْوَدِ وَتَدُورُ حَوْلَهُ بِسُرْعَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الضَّوْءِ قَبْلَ ابْتِلَاعِهَا.
بَيَانِيّاً: إِكْلِيلُ النَّارِ وَخَاتَمُ الضَّحَايَا المُتَوَهِّجُ فِي جِيدِ الهاوِيَة.
- **إِشْعَاعُ هُوكِينْغ (Hawking Radiation):**
عِلْمِيّاً: انْبِعَاثٌ حَرَارِيٌّ ضَئِيلٌ يُطْلِقُهُ الثَّقْبُ الأَسْوَدُ نَتِيجَةَ التَّأْثِيرَاتِ الكَمُومِيَّةِ عِنْدَ أُفُقِ الحَدَث، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى فُقْدَانِ كُتْلَتِهِ وَتَبَخُّرِهِ عَلَى المَدَى الطَّوِيل.
بَيَانِيّاً: دُمُوعُ الثَّقْبِ السَّوْدَاءِ وَزَفَرَاتُهُ الأَخِيرَةُ نَحْوَ الفَنَاء.
- **مُفَارَقَةُ المَعْلُومَاتِ (Information Paradox):**
عِلْمِيّاً: التَّنَاقُضُ بَيْنَ النِّسْبِيَّةِ (الَّتِي كَانَتْ تَرَى أَنَّ الثَّقْبَ يَمْحُو المَعْلُومَاتِ بَعْدَ تَبَخُّرِهِ) وَمِيكَانِيكَا الكَمِّ (الَّتِي تُحَرِّمُ فَنَاءَ المَعْلُومَات)، وَحُلَّتْ عَبْرَ «المَبْدَإِ الهُولُوغْرَافِيّ».
بَيَانِيّاً: مَلْحَمَةُ الذِّكْرَى الضَّائِعَة، وَثُبُوتُ أَنَّ المَاضِيَ مَنْقُوشٌ فِي لَوْحِ الكَوْنِ لَا يَمُوت.

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ وَفَضْلِه

(دُمُوعُ النُّجُوم: فِي مَلَكُوتِ الثَّقْبِ الأَسْوَدِ وَاللَّاوُجُود)